# عقد الياسمين

## مجموعة قصصية

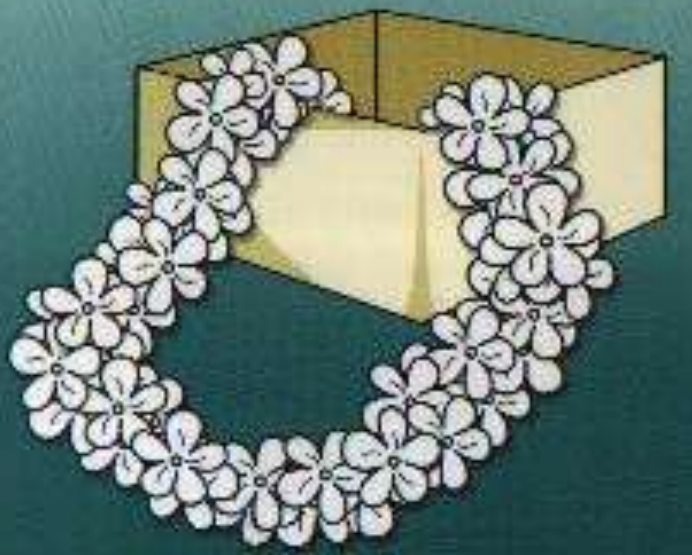



المهندسة المعمارية
يمان عبد الحميد ياسرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

# عقد الياسمين

# عقد الياسمين

## مجموعة قصصية

يمان ياسرجي

عنوان الكتاب : عقد الياسمين

الموضوع : مجموعة قصصية

تأليف : يمان ياسرجي

قياس الصفحة : A5

يطلب من المؤلفة :

هاتف جوال: ٠٩٣٣٥٤٣١٣٨ - ٠٩٦٨٥١٤٨٢٠

Yaman1962@hotmail.com

موافقة وزارة الإعلام بتاريخ ٢٠٠٢ رقم السجل ٧٤

**جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة**

# الإهداء

تحمل الكلمات في طياتها أنباء الوجود ، كما تحمل أشعة الشمس في ذراتها أسرار الحياة .. وتتضوع الحروف عطرًا .. وعبيرًا .. يملأ الكون ألفة .. ويثمر صداقة ..

ولأن الكلمات صديقتي ... لأنها صديقتي ...

فهي **لن** تأبى أن تكون رسول عرفانٍ وحبٍ .. تطبع قبلة الامتنان والشكر فوق جبين والديّ .. وترسم ابتسامة الفرح على وجوه عائلتي الصغيرة ..

**لن** تتردد أن تكون سفيرة الوداد .. تبلّغ الرسالة إلى كل القلوب الصديقة .. فتروي عطش العقول إلى الأدب النظيف ..

وتلبّي حاجة الروح إلى طهر المعاني ..

**لن** تعجز أن تكون دائمًا وأبدًا مطية العمر ، وصهوة الأحلام .. تسعى بالحواس وبالوجدان إلى عوالم الخير والعطاء .. فتترفع مع الخيال عن دنس الكتابة والمقولات ..

وترقى مع الأفكار إلى أجواء النور .. والنقاء .. والجمال .

يمان

# ثمن الحبِّ

وقفتْ أمام القبر دقائقها المعتادة منذ سبع عشرة سنة .. كانت تحتمي من انهمار المطر بمظلتها القديمة بينما وقف ابنها وزوجته تحت مظلة أخرى ، والبرد القارس يعصف بهم جميعاً ويراودهم للعودة إلى المنزل .. لكنها لا تتراجع أبدًا .. يوماً إثر يوم .. وصيفاً إثر شتاء .. وعزمها اليومي على زيارة القبر لا يكلُّ ولا يملُّ ... لقد مات زوجها بعد عشر سنين من زواجهما تاركاً صغيرها ذا الأعوام التسعة .

سألها الشاب بشفقةٍ وحبّ:

– أماه ... أما آن لك أن تنسي .. أقصد أن تتساهلي أو أن ...

وسبقت كلماته المتعثرة يدها المرتعشة إلى فمه :

– لا تكمل يا بني ، فالغدر لا يليق بأعوام الوفاء التي عشناها سوية ، وصدق الأمانة يقتضي أن أؤدّي الدَّين الذي يطوق عنقي وأن أردّ الجميل على أحسن وجه .. وأن أوفي الرجل حقه غير منقوص .

وجثت فوق القبر الحبيب ، دامعة العين والفؤاد منهكة القوى :

– ما كان أبوك زوجا فحسب .. بل كان الأم الحنون والأب الرؤوم والأخ الوفي .. وما زال صدى كلماته الطيبة تمسح دمعة عيني ورجع مواساته

الصادقة تزيل هموم قلبي ... ما زالت ذكراه الكريمة ترفع معنوياتي أمام ذاتي والآخرين ، وتبدد ضيقي وكآبتي وتوتر نفسي ..

أبوك يا بني ما تذمّر أبداً ولا غضب قطّ ولا أساء بكلمة أوموقف أو نظرة .. كان يعذر تقصيري ويعفو عن زلاتي ويكرّم من يلوذ بي إكراماً لي ، أطعمني قبل أن يَطعَم وألبسني قبل أن يلبس و أمنّ حاجاتي قبل أن يفعل لنفسه ، ولقد كان اليد التي تمتد إلى ما أريد والعزم الذي يسعى إلى ما أروم ... كان أنيس الوحدة ورفيق الكفاح .

انحنى الشاب فوق أمّه المريضة المنهارة :

– أماه أرجوك أنت متعبة والحزن عند المصيبة.

– قد أعطاني الكثير الكثير واستحق حبّاً كبيراً خالداً ....

لقد دفع ثمن هذا الحبّ وافياً حتى آخر لحظة من عمره .

تباطأت كلمات الأم وأنفاسها وازدادت جثواً:

– وهآنذا ..... قد وفيت ..... بعهدي .... حتى ..... آخر لحظة .... من عمري .

ولفظت أنفاسها الأخيرة فوق القبر ....

احتضنها الشاب باكياً وتوزّعت نظراته بين أمّه وزوجته ثم ضمّها إلى صدره المضطرب قائلاً :

– بل أنت من دفع ثمن الحبِّ يا أمي ... أنت في النهاية مَنْ دفع ثمن الحبِّ .

# صرخة في الظلام

انتهت المسرحية وأسدل الستار.

دوّت في الصّالة صيحات الإعجاب وتصفيق الحاضرين ، ثم بدأت الأنوار تختفي الواحد تلو الآخر لتظلّ في النهاية دائرة من الضوء يتوافد الممثلون إليها تباعاً ويصطفون فوق خشبة العرض رتلاً جميلاً ليبادلوا الناس تحياتهم الحارة .

أمّا هو ... فقد ارتمى كغيره من الظِلال على الأرض ..

ظِلٌّ لأحد أبطال المسرحية ..... ارتمى باستياء بالغ وشعر بالضيق الشديد وهو يرمق الظِلال الباقية تنساب هادئة راضية.

شعر بالضّيق والحنق وهو يسمع هتاف الجمهور يتعالى مرحّباً بصاحبه قال في نفسه " ليتني أستطيع الوقوف إلى جانب صاحبي لأنال شيئاً من هذا التهليل العظيم .. أولست أستحق طرفاً منه ..؟ ألم ألازم حركاته وسكناته ..؟ سرت حيث سار ووقفت حيث وقف ".

انحنى البطل لتحية الجمهور ، فانحنى الظل معه ، انحنى مقهوراً وهو يصرخ :

– كفى ... كفى.

سخرت منه الظلال الأخرى وتبسّمت هانئة قانعة .. سأله أحدها بلطف :

– لماذا أنت غاضب ؟؟

أجابه مخنوقاً:

– إنّ أقدام هذا الرجل تضغط علي بشدة ، تدوسني بقساوة وغلظة ، ومهما تطاولت ، أو ابتعدت عنه ، تظلّ أقدامه الصّلبة تحتجزني وتأسرني فلا أستطيع انفكاكاً ، بل إنها تلغيني تماماً عندما ينبعث علينا النور من أعلى .

سخر الظل الآخر قائلاً :

– عليكما ؟! أنت لابدّ تمزح .. النور يا صاحبي لا يأتيك أنت ، لا يأتيك أنت ، ولولاه " أقصد صاحبك " ما وُجدتَ أنت ولا ارتسمت ملامحك على سطح ما .

جاء الردّ سريعاً ... وبتمردٍ واضح :

– لا لا... أنا كيانٌ مستقلٌ بذاته .. ترمقني العيون كثيراً دونه أحسّ بها تماماً تتأمل شكلي المتغير دائماً .. وعاد لنفسه " شكلي المتغيّر " وبمرارةٍ قال:

– آه نعم .. كم أنا مرتبط به .. أفعل ما يفعل .. آه كم أتمنى أن أسكن لو تحرك .. أو أتحرك لو سكن ... ولكني حقّاً أفعل ما يفعل ( وقفزت إلى ذهنه فكرة طارئة تستدرك حديثه السابق ) لا لست دائماً أفعل ما يفعل .. فأنا أتمدد عندما ينام ولكني أظل يقظاً .. أحلم بالحرية .. بالانطلاق إلى الفضاء الرّحب .. بالرّقص في قاعات الشّموع بين ألسنة اللهب .. بالألوان العظيمة التي تنتهي عندي .. بالتماوج والانسياب فوق سطح رقراق ، وبالتكوينات البديعة والأبعاد الإضافية التي أستطيع منحها للحجوم والأشكال عندما أتوّج

عملاً فنياً .. أحلم بأشياء كثيرة مهمّة أقدر على اصطناعها .. أحلم بقدرتي على التلاعب بالحقيقة إذا أضيفت إليها التفاصيل الصغيرة .. بقدرتي على إضفاء العمق الجميل العذب لكلّ شيءٍ في هذا الوجود من الجمادات .. والأحياء .. وحتى المعاني والأفكار .. قد أسبق صاحبي فأكشف أمره .. وقد أدور حوله ، وهو ثابت في سكون .. ألا ترى كم هي متعددة امتيازاتي ؟؟.. وبالرّغم من ذلك فلا يبلغني إكرام ولا ينالني إكبار .. لا مكانة لا كرامة .. بل على العكس تماماً فقد تشوهني إسقاطات خاطئة .. وتكسرني حواجز تفصل فيما بيننا .. ويبددني الضوء الباهر أو العتمة .. وكما قلت من قبل تحتجزني دائماً قدمان راسختان فتسلبني حرية المبادرة وتجعلني دائماً الشيء الثاني والفعل المماثل وتجعل وثبي مرهوناً بخطى هاتين القدمين.

تَباطىء هديرالمشاهدين .. توقف التصفيق .. وانسحب بطل المسرحيّة من دائرة الضوء ثم غاب في لجّة الظلام ، وانسحب الظل أيضاً ثم اختفى ، ولكنّه كان يصرخ صرخة عميقة الحزن والمرارة:

– أعرف أن هذا قدري ... ولكنّي لا أريد أن أكون ظِلاً لأحد .

# في عالم الأطواق

بسرعةٍ غير متوقعة تكاثرت الغيوم وتوالت ومضات البرق مع أصوات الرّعد، لتنذر بمطرٍ غزيرٍ مفاجىء ..

كان حامد يحمل في يديه مجموعة من لفائف الكرتون ، يريد إيصالها إلى مكتبة أخيه الكائنة في نهاية ذلك الشّارع الطويل.

كانت حبّات المطر أكبر من أن يتحاشاها بيديه أو بثيابه لذا فقد ألجأته إلى الاحتماء تحت شرفات المنازل المتناثرة هنا وهناك ، شأنه شأن الكثيرين من المارة الذين لا يحملون مظلاتهم تحسّباً للأحوال الطارئة ..

راح حامد يتلهى بمراقبة الطريق ، وقد امتلأت سطوحه المنخفضة وأخاديده بالماء ... وبمراقبة الأولاد يتقافزون كالعصافير فوق البرك والجداول .. وبمشاهدة أضواء السّيارات التي تعكس شكل المطر واتجاهاته ، والنّاس بين مسرعٍ هاربٍ ومستظلٍ واقفٍ .. والكلّ ينتظر من السّماء أن تفرغ ما في جعبتها وجعبة غيمتها العابرة تلك .. وحانت منه التفاتة إلى مظلةٍ مجاورة تمتد بأناقة متميزة برّاقة فوق أحد المحلات التجارية .. كان واضحاً أنّ المحلّ حديث الافتتاح ، تلمع أركانه بالجِدة ، وبألوانٍ كثيرةٍ من الأضواء والديكورات المبتكرة وقف حامد أمام الواجهة لتستطلع عيناه المعروضاتِ الغريبة فيها ثم راح يحاول بذهنه أن يستكهن فحوى هذه التّجارة وما توفره من حاجات للنّاس ..

كان صاحب المحلّ يقف خلف الزّجاج ويرقب أحوال الشّارع عندما التقت عيناه الماكرتان بعيني حامد المتسائلتين ابتسم وفتح الباب المغلق على دفء الداخل ودعاه للدّخول ممازحاً :

– تفضّل يا أخي تفضّل وأسأل نحن لا نأخذ على السؤال مالاً.

قال حامد متردداً وهو يتلفت فيما حوله :

– الحقيقة أني .....

ردّ البائع وهو يجلس إلى طاولة يتربع فوقها حاسوب أنيق :

– تفضّل خذ راحتك المحلّ محلك .

بدأ حامد يقرأ بطاقات الأسعار الموضوعة على الرّفوف والتي تحمل أوصاف المنتج ...

أطواق نحاسيّة .. القطر كذا .. السّعركذا ...

أطواق حديديّة .. القطر كذا .. السّعر كذا ...

أطواق من العاج .. من خشب الصّندل ...

أطواق قابلة لتغيير القطر ...

أطواق ذات شاشات الكترونية تخزن كل المعلومات عن صاحب الطوق ...

أطواق من الذهب الرّوسي أو الهندي أو المحلي ...

أطواق من الماس ...

أطواق من الياسمين الصّناعي .. من خيط القصب المزركش المتشابك .. من الحرير الطبيعي المجدول ...

أطواق ذات أقفالٍ ومفاتيح مرصعة ...
أطواق ذات سلاسل فضية ...
وغيرها .. وغيرها .. أشكال وأصناف وأنواع ...
ازدادت دهشته وعجبه .. وتلاشى تردده وإحجامه فسأل مبادراً دون تفكير:
– لمن هذه الأطواق ؟؟ من يشتريها ، ولمن.؟؟ أقصد ماهي نوعية زبائنك ؟؟
– كلّ الناس ولكلّ الناس .
– مثل من ... ولمن ؟
– الأصدقاء لأصدقائهم .. والأقارب لأقاربهم .. والأزواج لأزواجهم .. والأ.....
قاطعه حامد قائلاً :
– أنا مثلاً ماذا يمكنني أن أشتري من عندك ؟
– حسناً لك أن تعطيني اسمك .. صورتك .. عمرك .. ومستواك العلمي ، كما عليك أن تجيب على أسئلة الحاسوب بصراحة مطلقة وعندها تحصل على قائمة بأنواع الأطواق التي يمكنك شراءها للآخرين.
– للآخرين ..؟؟ لمن مثلاً ..؟؟
– لكل من حولك أو للبعض منهم حسب الحاجة .
– هل أنت جادٌّ فيما تقول ؟؟؟

– ما بك ؟؟ أولسنا نسير وأيدينا في رقاب بعض ؟ أوليست مواقف الآخرين تطوّق أعناقنا ، ومواقفنا تطوّق أعناقهم ؟ قد يأسر بعضنا بعضاً بكلمةٍ أو بسلوكٍ ، وقد يملك بعضنا بعضاً بتعاملٍ أو بأسلوبٍ وقد ....

تراجع حامد خطوةً وقال :

– أحسّ بأن رفوفك هذه مملؤة بالشرّ .

ضحك البائع قائلاً :

– بالشرّ ....؟؟؟!!! قل بالحكمة يا رجل .

– لا بل إنه شرٌّ .. شرٌّ أن يصير حبّي لشقيقي واهتمامي به طوقاً ولو ماسياً ، بسلسلةٍ أسحبه منه ... شرٌّ أن يصير تواضعي لصديقي وحسن عشرتي طوقاً ولو ذهبياً ، يخنقني به ... إنه شرٌّ أن تتحول العلاقات البشريّة المتبادلة في رفوفك إلى ساحب ومسحوب أو تابع ومتبوع .. الطوق طوق .. قيدٌ في الرّقبة ومفتاحه في يد أخرى .

– ولكنّه الواقع .. انظر وتمعن فيما حولك .

– إنّ فساد البعض لا يستدعينا أن نكرّس واقعهم ونضخّمه لنجعل منه مادة للرّبح الماديّ والمعنويّ .

– ولكنّه الواقع .

نظر حامد إلى البائع واحتضن لفائف أخيه الكرتونية في ثقةٍ وشموخ :

– صدّقني ... عندما تكون نوايانا وأعمالنا جميعاً خالصة لوجه اللهِ لن تجد فينا من هو في حاجة إلى أطواقك .

# الوصيّة

قبل أن يخرج الطبيب من غرفة المعلم "عيد" كان المختار ورئيس المخفر ومديرالمدرسة وثلة من رجالات القرية ولفيف من الجيران يتجمهرون في ساحة منزل الحاج صطوف ، وهم يتبادلون عبارات الأسى والترحم ... إنّا لله وإنّا إليه راجعون لقد كان خير معلم وفد إلى هذه القرية .. لا حول ولا قوة إلا بالله ... يا أسفي على شبابه .. الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً ... ايه كاس على كل الناس.

كان عبد الله ابن الحاج صطوف هو أول من اكتشف موت معلمه عندما مرّ به كعادته صباحاً ليذهبا إلى المدرسة معاً.

أخبر والده الذي قام بدوره بإخبار أهل القرية وإحضار الطبيب لتشخيص سبب الوفاة .

راح الجميع يتدارسون أمر المرحوم .. فإكرام الميت دفنه ولكن كيف وأين وهم يعلمون أن عيداً هذا يتيم الأب والأم ولا أقارب له.

كان رفيقه حسام الذي يشاطره سكن الغرفة ، يسافر يومي الخميس والجمعة من كلّ أسبوع لزيارة أهله في المدينة أمّا هو فمنذ مغادرته ملجأ الأيتام فيها ، لا يزورها إلا لشأنٍ ما.

تساءل مدير المدرسة :

– أين حسام ؟؟ ألم يصل بعد من السفر ؟ لقد استأذن البارحة في الغياب ليوم واحد فقط وذلك لحضور عقد قران أخته .. كان عليه أن يداوم اليوم.

أجاب أحدهم:

– عسى أن يكون المانع خيراً .

قال رئيس المخفر :

– حسناً .. لن نستطيع الانتظار أكثر .. فلنهيء له مكانًا في مقبرة القرية وهلموا فلنسارع بإجراءات الغسل والدفن.

كان شبح الحزن مخيماً على كلّ أرجاء القرية والكلّ يعمل صامتاً من هول المفاجأة.

قال المختار :

– ألف رحمةٍ تنزل عليه .. لقد جاءني منذ شهرٍ تقريباً يتواسطني كي أخطب له إحدى بنات القرية .. لقد أراد أن يكوّن أسرة يشعر من خلالها بالدفء والحنان اللذين حرم منهما طوال حياته .. ايه .. رحمة الله عليه .. لن تصدّقوا لو قلت لكم ..

– ماذا يا مختار .. ماذا ..؟؟

– في اليوم التالي لزيارته تلك .. فوجئت به يطلب مني نسيان موضوع الخطبة وعندما سألته عن السبب قال لي :

– كان حلماً غريباً ما رأيت البارحة أثناء نومي .. لقد كنت أقرأ آية من القرآن وأنا أنظر إلى السماء ثم كرّرتها مرّاتٍ ومرّات كانت الآية هي * **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين** * صدق الله العظيم .

وعندما استيقظت كانت أوصالي ترتعد .. إلا أنّ أذان الفجر تسلل إلى كياني ليزيل اضطرابي ويُهدّىء من روعي .. وبعد الصلاة رأيت أن أبحث عن هذه الآية ووجدتها في سورة المرسلات .

وصمت عيد قليلاً ثم قال لي جزعاً :

– إنّها الآية الثامنة والثلاثون يا مختار .

قلت له :

– حسناً وماذا في ذلك ؟

انتفض قائلاً :

– لا أدري .. لا أدري ..

وقام ينوي الذهاب وهو في حالة قلق ظاهر فلم أشأ إيقافه إلا أنّه التفت إليّ عند الباب وقال متردداً :

– أنا ... أنا في عامي الثامن و الثلاثين .

وغاب عني حتى ساعتنا هذه .

تهامس الحضور .. الله أكبر .. الله أكبر .. لعله كان يحس بدنو أجله فآثر ألا يترك حزناً في قلبٍ ما .. وألا يسبب فاجعة لأحد.

تمّ كلّ شيءٍ بسرعةٍ عجيبةٍ .. صار القبر جاهزاً لاستقبال الوافد ، وقام شيخ الجامع ومن ورائه أهل القرية بصلاة الجنازة وتدافع الرجال لحمل النعش باتجاه المقبرة .. ولكن ياللغرابة .. إنهم يحسّون بممانعة غريبة .. وكلما اقتربوا من القبر أكثر صارت الممانعة أكبر حتى توقفوا رغم إرادتهم .

تصايح الرجال :

– ماالأمر .. ما سبب هذا ؟ إنّ النعش لايتحرك وكأن يداً هائلة تستوقفه ... وضعوه على الأرض .. ثمّ تبادلوا نظرات ملؤها الحيرة .. والاستغراب.

في تلك اللحظة وصل حسام إلى القرية .. وقد عمّ خبر وفاة رفيقه مشارفها فعلم الأمر .. وسارع ذاهلاً باكياً إلى حيث تجمع رجال القرية .

قال له أحدهم :

– أنت رفيقه الوحيد .. عظَّمَ الله أجرك .. وغفر لميتك .

جثى حسام قرب التابوت تمتم قائلاً والدموع تتساكب من عينيه :

– أخي عيد .. أخي عيد .. إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ولجم الصمت لسانه .. فلبث صامتاً حزيناً دامعاً .. كأن على رأسه الطير ... احترم الناس مشاعر الأخوة والصداقة التي تجمعهما .. ولم يشأ أحد أن يقطع عليه حزنه وانتظر الجميع أن يفرغ الصديق من وداع صديقه من تلقاء نفسه .. لعلها تطيب روح الميت .

قام حسام مطأطئاً رأسه .. وقال :

– هيا يا رجال ..فلنحمل معاً .

وبدأ المسير من جديد .. وماهي إلا خطوات قلائل حتى عادت ممانعة التابوت حتى التوقف .. وعاد الرجال يتساءلون عن الأمر ويقولون :

– في الأمر سرّ... لا بد أن يكون في الأمر سرّ.

أفاق حسام من ذهول الحزن وكأنّ خاطراً اصطدم برأسه وقال :

– أين تريدون دفنه ؟؟

أشار أحدهم :

– هناك في مقبرة القرية .

أجاب حسام بسرعة وبلهفة :

– لا .. لا .. لقد أوصاني أن يدفن هناك ، فوق التل الغربي عند تلك الشجرة .. هناك حيث كان يقضي أجمل أوقات حياته .. كان يقول لي دائمًا كلما كنا معاً :

– في هذه البقعة من الأرض أجد لحياتي طعماً خاصاً .. هنا دائما أتجدد وأبدأ من جديد .. وهنا .... هنا أريد أن أموت ، وصيّتي يا حسام أن أدفن هنا .. إنها وصيّته يا رجال ..... فتعالوا أدلكم على المكان .

# رحلة البحث عن العشرة الأخيرة

في نهاية الحلقة من ذلك البرنامج العلمي ، راحت إلهام تعدّ وتحصي بالورقة والقلم جميع أقربائها .. ومعارفها .. وكلّ من يمتُّ إليها بصلةٍ من أيّ نوعٍ.

كان البرنامج يفلسف تطور العلاقات الإنسانية منذ العصور الحجرية حتى يومنا هذا .. وكان من بعض مقرراته ( أن علماء الاجتماع والعلوم الإنسانية من خلال دراسة إنسان القرن العشرين وجدوا أن رقم /١٥٠/ هو/ حد أدنى/ لمجموع العلاقات التي يقدر الفرد على معايشتها جميعاً وفي آن معاً ).

هالها الرقم أول الأمر .. ثم أخذت تنبش في ذاكرتها ما طواه البعد وما غيّبه النسيان ... وما آل إلى فتورٍ وانقطاع.

كتبت الكثير من الأسماء مرقمة حسب جدول مرتب .. وكانت كلما وجدت العدد لا يتجاوز بضع عشراتٍ أضافت الأسماء العابرة التي لا تربطها بأصحابها غير التحية ولو إيماء.

أضافت كذلك أسماء أصحاب المحلات التجارية الدائمة التي تتعامل معها على اختلاف أنواعها تبعا لحاجاتها المختلفة من غذائية وقرطاسية وملابس وسواه.

توقفت قليلاً .. ثم راحت تعصر مخازن الذاكرة وتستحضر منها كلّ شاردة وواردة .. هناك الحلاقة النسائية .. والخياطة والأطباء على اختلاف

اختصاصاتهم .. والأشخاص الذين تلتقيهم على سبيل تأدية خدمات عامة مشتركة.

ووصل العدّ بها إلى مئة وثلاثين ... وحتى تقارب الرقم المعتمد عالمياً أكثر أضافت أسماء جميع من تعجب بهم من المؤلفين والشعراء ومقدّمي برامجها المفضّلة في الإذاعة والتلفاز والفنانين والفنانات وبرّرت ذلك لنفسها بأنها تتفاعل مع فنونهم وتتأثر بالشحنات الانفعالية التي تسمعها أو تراها لديهم.

وبعد .... تساءلت في صمتٍ وحزنٍ ... ماذا يعني أني بالكاد أصل إلى رقم مئة وأربعين ..؟؟ .. هل أفتقر إلى مؤهّلات ومقوّمات تنقلني إلى مصاف المعاصرة ؟؟ هل تنقصني المبادرة والمجاملة واللباقة في تكوين علاقاتٍ أكثر وأعمق وأغنى...؟؟؟؟

من أين آتي بالعشرة الأخيرة ..؟؟

ومرّت تلك الليلة طويلة أكثر مما ينبغي .. وما إن جاء الصباح حتى فتحت نوافذ القلب والنفس والذات ... وحملت في جعبتها زاد التواصل محفوفاً بنور العقل وشهد الرضى ... ومضت في طريق الخير تبحث عن العشرة الأخيرة.

# قراءة في أبجدية الشتاء

تمطّتْ ... تثاءبت ... استرخت طويلاً تحت الغطاء الدافىء .. كان الثلج يتراقص فوق زجاج النافذة .. وكانت نظرة لامبالية تلك التي رمقت بها ذرات الثلج.

لكنها .. فجأة .. صاحت كما صاح العالِم أرخميدس في ذات يوم "وجدتها".. ولمعت الفكرة الطارئة ببريقٍ مميزٍ في ذهنها المكدود فأورثه نشاطاً غريباً .. لعلها هواية جديدة .. مثل جمع الطوابع.

إنّ أشكال بلورات الثلج الغنية بالزخارف والألوان الكامنة في صميم البياض الناصع .. وكأنها حروف أبجدية خاصة تستفزها على نحو خاص.

وقفزت .....

قفزت لأوّل مرة منذ بضع سنين ، كانت خلالها تسير وئيدة الخطى مثقلة الكاهل تكبل أطرافها أغلال العمل اليومي المكرور وتوهن نبضها متطلبات الواجبات الخفيفة والثقيلة.

قفزت ... وهي تدرك أنّ الوثب يختصر المسافات السخيفة ويلغي الأشياء التي لا طائل منها.

قفزت ... وهي تعتذر لنفسها عن زمنٍ ميتٍ استغرق في داخلها كنومٍ عميقٍ أو كسباتٍ شتويٍّ طويل حريّ بذوات الدماء الباردة.

نعم .. هذه الذرات لا متناهية الأشكال والأحجام .. هذه الذرات فائقة الخصب والغنى .. تغوص في طيات التراب .. تتغلغل في جذوع الشجر .. تقف في كلّ مكان .. تعلق حتى بذرات الهواء ... وحين تذوب في خلايا الأرض ، وتتشربها مسامات الكون والكائنات ... فإنها تنفرز ربيعاً حرّاً .. ربيعاً شاملاً .. يترك في كلّ ركنٍ بصمة .. وفي كلّ زاويةٍ سمة .. ولهذا يأتي الربيع عظيماً .. جامحاً .. عفوي التدفق .. شديد التألق ...

ولم تتوانَ ... سارعت إلى فتح النافذة ..

وبيدين ظامئتين إلى الإبداع راحت تلملم وتجمع حروف الأبجدية الجديدة ... وفي قلبها عزمٌ طافحٌ ...طامحٌ على صنع حضارة ما.

# خيرٌ بين خيرين

كان عبد الله يتكسّب الرزق من بيع الكعك المحلّى .. يجرّ عربته المتواضعة ويطوف بها في أنحاء المدينة الصغيرة .. وفي الطريق استوقفه صبيٌّ عاثرٌ قائلاً:

– بكم الكعكة يا عم ؟؟

– خمس ليرات ... أجاب البائع دون مبالاة أو توقف .

انكمش الصبي في أسى :

– لا أملك غير ليرتين فهل .. وبترددٍ مشوبٍ باللهفة .. هل تعطيني نصفاً .؟

دهش الرّجل أوّل الأمر ثمّ حوقل :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. ومن يشتري مني النصف الآخر؟

وهمّ بمتابعة المسير إلا أنّه قرأ في ملامح الطفل وفي عينيه رغبة أو ربما جوعاً أو حاجة للقيمات .. وتذكر عيون أطفاله التي تستقبله في المساء فأشفق وتأثر.

– حسناً ... خذها بليرتين .

قفز الصبي بها طرباً وتراقص الفرح الطفولي في خطواته المرحة حتى اصطدم بحسان الذي كان عائداً إلى بيته في نهاية يومٍ حافلٍ وفي جيبه أول أجرة يستلمها لقاء عمله .

تحسست أنامله المال الجميل ، وهو يشهد ما جرى بين البائع والطفل ، وصغت نفسه إلى وازعٍ طيبٍ وقد تذكر قسم الرسول الكريم صلى الله عليه

وسلم " **ما نقص مال من صدقة قط** " فاستخرج من جيبه ما شاء الله له من مال واستوقف البائع قائلاً :

– إليك يا أخي هذا المبلغ .. أمانة تجعلها ثمن كعكات تضعها جانباً وتعطي منها كل من يشتهيها ولا يقدر على الشراء .

وغاب في منعطف الحارة قبل أن يتلقى الجواب وراح يغذ السير إلى سكنه راضي البال .. حامداً شاكراً .. إلا أنّ وسواساً عابراً أحاط بتفكيره " هل استوثقت منه ..؟؟ وما أدراك أنّه قد ....."وقبل أن يلح عليه خاطر الشكّ والظنّ أراد اليقين .. وقفل راجعاً يتوارى بين زوايا الجدران يرقب عن كثب .

كان البائع يدقق في قيمة المال .. ثم ينحّي جانباً عدداً معيناً من الكعكات ويتابع مسيره ببطء وهو ينادي معلناً عما لديه وطالت الطريق وتعرّجت .. واختلفت الدور والساحات .. واختلط المارون قادرهم وضعيفهم .

ومن بين الأصوات المتداخلة تناهى إلى سمعه كلمات طفلة :

– أمي أريد من هذه .... إنها لذيذة .

لكن الأم شدّت على كتف ابنتها بحنانٍ وتحسّر :

– هيا يا ابنتي هيا .. ما معي ثمنها .. أختك تنتظرنا هناك هلمّي .

التفت عبد الله ناحية الصوت الصغير وقد أخذت بمجامع قلبه فكرة ذلك الرجل العابر .

سارع إلى الطفلة بكعكتين قائلاً :

– لا تبالي يا صغيرتي .. هذه واحدة لك وأخرى لأختك .

مانعت الأم محاولة ردّها وإعادتها :

– لا يا أخي .. أنت أحقّ بثمنها ونحن لا نملكه .

– والله لن تعاد ولن أستردّها .

انسحبت المرأة بطفلتها وهي تقول :

– جزاك الله خيراً ... جزاك الله كلّ خير .

إلا أنّ عبد الله راجعها قائلاً :

– فليكن دعاؤك لمن دفع الثمن ... ليس لي .

– جزاكما الله كلّ خير .... جزاكما كليكما .

وغابت في زحمة البشر .. كان حسان قد وصل إلى جوار عبد الله فأخذ يده وصافحه وشدّ عليها .. ثم اعتنقه قائلاً :

– قد أسرتني أمانتك .. وصدقُ سريرتك يا أخي .

– وأنت من قبل قد أسرني كرمك .. ونبل إنسانيتك .

وتآخيا ... غريبان جمعتهما مشيئة الرَّحمن على غير موعد في الطريق .

# على طريقتي الخاصة

في غرفة السكرتاريا في إحدى الشركات الخاصة جلس كثيرون ينتظرون دورهم في المسابقة المعلن عنها حول وظيفة شاغرة .

كانت السكرتيرة تأخذ بياناتهم المطلوبة وأوراقهم الثبوتية والإضبارات والشهادات .. والبطاقات الصغيرة المرفقة التي تحمل تحياتٍ خاصة لأحد أعضاء اللجنة أو لرئيس الشركة.

كان ترتيب الشركة وأثاثها ونظافتها .. ينمّون جميعاً عن ذوق رفيع وإدارة متميزة .. الجو لطيف .. بارد نسبياً .. بسبب المكيفات الموزعة هنا وهناك .. والوضع هادىء مستتب .. ثمة ثرثرة بين هذا وذاك .. همسات متبادلة تصدر من أحد الأركان .. أحدهم يتذمر خفية من طول انتظاره فقد كان أول الوافدين .. وآخر يتسكع في الممر جيئة وذهاباً وهو يدقق في اللوحات والصور المعلقة على الجدران ... واللجنة لم يكتمل عدد أعضائها بعد.

في ذلك الوقت ... دخل رجل في الستين من عمره يلبس لباساً رسمياً ويضع على عينيه نظارة عاكسة .. ذو لحيةٍ قصيرة محفوفة بيضاء وشاربين كبيرين قليلاً ، يحمل في يده جريدة يومية ومصنفا للأوراق الخاصة.

اتجه مباشرة إلى طاولة الموظفة وانحنى بهمسٍ يقدم ثبوتياته ويعرّف عن نفسه ، إلا أنها صاحت بدهشةٍ ومفاجأة :

– أنت يا عم ...؟؟؟

التفت الجميع إلى الرجل على إثر ذلك الصوت ... فارتبك وتلفت حوله ينظر في الوجوه .. كانت أعمارهم متقاربة بين العشرين والثلاثين وبدا فعلاً مختلفاً تماماً عنهم .. لكنّه لملم شجاعته وقال :

– لم لا يا آنسة ... أنتم لم تحدّدوا السن المطلوبة في الإعلان .

– أنا آسفة .. أنت على حق ... أرجوك يا سيدي أن تقبل أسفي لم أقصد إحراجك .

– حسناً .... حسناً .

واستدار يبحث عن مكان يجلس فيه ، وقد أراده منزوياً في ركنٍ بعيد يتيح له أن يدقق ويتفحص في وجوه الآخرين .

في تلك اللحظة .... رنّ جرس هاتف السكرتيرة ....

– نعم .. نعم .. حاضر .

أجابت الطرف الآخر ثم وضعت السماعة قائلة :

– يا سادة .. أنتم ضيوف المدير ... وهو يريد أن يضيفكم ريثما تنعقد اللجنة .. أرجوكم فليتقدم كل منكم ليملي علي طلبه .

تلاحقت الطلبات العديدة والمتنوعة .. قهوة .. شاي .. شراب بارد ، وما إن كتبتْ آخر طلب حتى رفعت رأسها تجاه الرجل وقالت :

– وأنت يا عم ... لم تطلب شيئًا .

صمت قليلا ثم أجاب ببرود :

– أريد فطيرتي جبن مع عصير الليمون .

ابتلعت دهشتها وهي تدون الطلب الأخير .. ودهش الجميع وتبادلوا نظرات تحمل الكثير من المعاني المختلفة ، ورمقه كلٌّ على طريقته الخاصة .. لكنّه كان يتحدى خواطرهم الهازئة والمستنكرة بتحديقٍ خاطفٍ في كلّ وجه.

وبالرّغم من أنّه كان محط الأنظار .. إلا أنّه قرّر أن يتجاهل الجميع ففتح جريدته ووضع رجلاً على رجل .. وراح يتظاهر بالقراءة .

مرّت دقائق معدودة .. كان خلالها علاء وهو أحد المتسابقين يقاوم رغبته الشديدة في التحرّش بالرّجل ومحاورته إلى أن اقترب منه أخيراً ..

جلس في المقعد المجاور له وهو يضحك ويمدّ يده إلى الجريدة ليصحح وضعها المقلوب قائلاً :

– حسناً يا سيد .. ما رأيك الآن .. هكذا تستطيع أن ترى الصور بشكل أفضل .. والحروف لن تكون مقلوبة .. وأضاف ضاحكاً .. لابد أن الأخبار التي قرأتها من قبل لم تكن صحيحة أو .. ربما غير سارة .. اقرأ الآن وستكون الأمور أفضل .

نظر الرجل إليه .. وبلا ملامح مميزة أجابه :

– أقرأ الجريدة كيف أشاء .. أكان يسوؤك ذلك .

– لا طبعاً .. أنت حرّ .. لكنّك أثرت فضولي كثيراً .. بل ومذ دخلت هذا المكان .

سكت علاء قليلاً ثم أضاف بلهجةٍ جادةٍ جداً :

– هل يمكنك إشباع فضولي يا عم ..؟؟ أم أنّك تعتبر ذلك تطفلاً مني لا يليق .. أأدعك وشأنك ... أم أنك تقبل الحوار..؟؟؟؟

هزّ الرجل كتفيه بلا مبالاةٍ ظاهرة :

– إسأل ما تريد .. لن يضيرني أن أجيب .. كما ترى أعصابي باردة وبالي طويل جداً .

– ذلك واضح جداً ..

هزّ علاء رأسه مؤكّداً واعتدل في جلسته وهيّأ نفسه للحديث قائلاً :

– أنت تبحث عن عمل لكنك لا تملك المؤهلات المطلوبة لهذه الوظيفة ، أليس كذلك ؟ ربما أنت تملك البطاقة الصغيرة ... وربما قلت لنفسك هي ضربة حظ .. ولن أخسر في المحاولة شيئاً .

– .....!!

– حسناً .. لك ألا تجيب عن هذه ... وطلبك للضيافة ألم يكن غريباً ؟ أم أنك اعتبرته مكسباً ولم تضيع الفرصة ؟؟

– .....!!

– حسناً .. والجريدة ، بالله عليك هل كنت تقرأ فيها وهي مقلوبة .؟؟

تبسّم الرجل دون جوابٍ .. بينما عيناه تتبعان الحديث في وجه الشاب المتحمّس ...

أضاف علاء :

– أعرف أنّه فضول ... لكنّي استأذنتك فأذنت لي .

– لابأس .. هو فضول ذكي وجريء .. ولكن هل تتبّعت التفاصيل في سلوك الموجودين كلّهم ... أم اقتصرت على مراقبتي أنا ..؟

رد الشاب بمكرٍ واضح :

– هكذا صار السائل مسؤولا !!

– أفهم من جوابك أنّك لن تجيبني.....؟

– حسناً .. أنا أستطيع أن أسرد لك انطباعاتي عن كل متقدّم ومتقدّمة .. انظر ذاك متوتر جداً .. وذاك مغرور متعالي قدّم أوراقه بطريقة سخيفة التعجرف .. وتلك تستمد ثقتها بنفسها من مظهرها البالغ في التأنق وهي تحاول أن تستقطب الاهتمام .. انظر الموظفة نفسها ضاقت ذرعاً بنا جميعاً وهي تعمل جاهدة كي تبدو لبقة متماسكة الأعصاب .. وذاك الواقف أمام الـ.....

قاطع الرجل حديث علاء المتلاحق :

– كأنك لست في مقام المنافسة .. لا يبدو عليك قلق أو اهتمام بساعة الامتحان .. أم هي ثقة بالنفس كبيرة .. أم لامبالاة ؟

– ليس الأمر كذلك .. إنّها مجرّد قناعةٍ بأنّ ما قسم لي لا يكون لغيري ولو كان رزقي هنا فسأعمل هنا .. دوري يتوقف على أن أكون كامل الأهلية ، والحمد لله .. خبرتي ممتازة ومؤهلاتي بدرجة تفوق .

– لكنك شديد الفضول .. والحرص .. والمكر .. أنت تحاسبني على طلب الفطيرتين !!

– آسف لما سأقول .. لقد وجدت في ذلك استغلالاً غير لائق لمن أراد إكرامنا ..و.. ( وبتردد ) .. وقلة مروءة في الطلب فقد كان غريباً وغير عادي.

قال الرجل ببرودٍ وتهكم :

– فليكن .. هو من مال الشركة .. لا من جيبه و لا من جيبك .. هذا يدخل تحت باب المصاريف النثرية .

صمت علاء بملامح مستنكرة لهذا المبدأ .. ثم أشاح بوجهه :

– بل تحت باب الاستغلال .. والـ.....

تحمس الرجل وقال :

– ما هذا ..؟؟ سيهنأ من تعمل لديه برجلٍ حريصٍ على ماله .

وبصدقٍ وعفوية ردّ علاء :

– إنّها أمانة يارجل .. ولكي يصير الراتب حلالاً فتحل البركة فيه والبركة في المال خير من كثرته .

وقبل أن يستمر الحوار بدأت جلبة وضوضاء تظهر في كلّ مكان فقد وصلت طلبات الحضور وانفرد كلّ بما يحمل في يده .

احتسى علاء قهوته بسرعة .. واستعد للمثول أمام اللجنة لأنّ ترتيب دخوله كان الثالث ... وعند خروجه من غرفة التحكيم أراد أن يودّع الرجل فما وجده ، ثم علم من الموظفة أنّه انسحب بأوراقه ورحل .

..... بعد أيام .....

تلاحقت مراجعات المتسابقين لمعرفة النتائج لكنّ اسم علاء تصدر قائمة الفائزين .

وعندما أراد الشاب الفائز الدخول إلى غرفة المدير استقبله أمين مكتبه قائلاً :

– أهلاً سيد علاء .. تفضل من هنا .. والتقت العيون ليُحسّ الشاب بأنّه يعرف ذلك الوجه تماماً ولكن بصورةٍ مختلفة .

وقبل أن يستغرقه التساؤل والتخمين ... أخبره الرجل :

– لقد أراد المدير موظفاً غير عادي .. فبالإضافة إلى مؤهلاته أراده كثير الفضول والجرأة معاً .. قوي الملاحظة .. سريع البديهة.

# حُمّى الذهب

نظرتْ إلى النساء وهن يتبارين في سباق التسلح الذهبي .. تنهّدت .. تحسّرت .. إنّها تحبّ الذهب كثيراً .. ترتعش أوصالها كلما سمعت رنينه يتصاعد في معاصم السيدات ، وتختلج أسى وحرقة كلما أبصرت بريقه الوضاء يشعُّ في الأعناق الحالمة ، ويصهل في مسامعها كجيادٍ أصيلة ، فتزداد تعلقاً ورغبة .

غالبت أساها طويلاً .. وكبحت جماح لوعتها كثيراً إلا أنّ عاطفتها الجياشة تجاه الذهب صارت تلوّن شخصيتها بلون خاص وتضفي عليها طابعها الغريب .

كبرت الحاجة في مشاعرها حتى صارت غولاً مخيفاً .. وراحت الصديقات يتهامسن عن جوعها الذهبي ونهمها الأصفر البراق .

كانت أعزّ صديقاتها تكثر من إعارتها عقدها الثمين .. وكانت أخرى تلبسها في مناسباتهما المختلفة أساورها المرصّعة .. لكن إحساسها القاتل بالنقص .. بالفقر .. بأنّها أقلُّ من غيرها ماديّاً وبأنها غير قادرة على الظهور كما تظهر الأخريات ، ظلّ يسبب لها الشقاء الفظيع .. ويشوّه لحظات حياتها ، حتى كان ذلك اليوم ....

كان حفلا جميلاً .. تكتنفه البهجة والسرور .. ويشعّ في أجوائه الفرح والدماثة .. وتتخلله الأحاديث المتنوعة والأفكار المرحة والمسابقات الطريفة .. وكان كلّ شيء يبدو عادياً مألوفاً .. حتى لحظة اختيار أجمل عقدٍ يطوق عنق سيدة ..

وقبل إعلان اسم الفائزة بثوانٍ قليلة .. تقدّمت صاحبة العقد الفائز .. لتأخذ عقدها المعار .. من عنق صديقتها .. ولتعلن ملكيتها الحقيقية له بنشوة المنتصر ... وبالرّغم من أنّها تطوّق عنقها بآخر لا يقلُّ عنه جمالاً .. إلا أن للفوز متعته .. وللشهرة سحرها .. وراحت تفاخر بقصّة شرائه " كنا في باريس في سياحة العام الماضي وفي فترة عيد زواجنا الأول .. أوقفني زوجي أمام أفخر الماركات العالمية وطلب مني اختيار قطعة ذهبية ".

كانت عيون الحضور تنتقل بين صاحبة العقد الحقيقية وبينها وكانت تحمل لها ألف ألف معنى .. شعرت بالعار .. بالخزي .. يا لها من ورطةٍ شديدة ... ومن مأزقٍ حرج .. تتزيّن بما لاتملك .. وتدّعي ما ليس لها .. قبل قليل امتدح الجميع سعة اطلاعها وغنى ثقافتها عندما دار الحديث عن بعض الظواهر الكونية التي صارت كثيرة الحدوث على مرأى ومسمع العالم بأسره .. وكانت هي سيدة الحوار .. أمّا الآن فهي تواجه موقفاً مختلفاً .. شعرت بالبرد .. بالعري .. بالسقوط في هوة سحيقة بالاختناق .. بالخجل والصَّغار .. أرادت أن تنسحب فلم تطاوعها قدماها .. أرادت أن تبكي فلم تسعفها الدموع ..

جمدت كتمثال من الشمع ، لا تتحرك فيه إلا مفاصله الآلية .. وغابت تحت غلافه السميك إلى قعر ذاتها المنهارة .. المتمزقة كأشلاء والمتكسرة كشظايا .. كان الدرس قاسياً .. بالغاً في القسوة .. راحت تجمع أشتاتها الضائعة في الأعماق .. ماء وجه أراقه الإفراط في الشعور بالحاجة .. وعزة نفس أهدرها الإسراف في إرواء الظمأ ، والتفريط في شكر النعم .. فكرّت كثيراً .. أدركت نقطة ضعفها .. تلك التي تلقي بها إلى الفتات فوق موائد الآخرين ...

استطالت قامتها قليلاً ما .. وصلب عودها شيئاً ما .. بدأت تشعر بالاستغناء عندما خطر لها أن ما أصابها لم يكن ليخطئها وما أخطأها لم يكن ليصيبها.

تعالت فوق حاجتها كثيراً ، عندما اعتقدت أن نوال الحاجة أو عدم نوالها ، مقدّر أزلي ، لها أن تدفعه بالدعاء ، دون أنّ تترامى في سبيل قضائها ، أمام من يليق أو لا يليق من العباد ... كما أدركت تماماً أنّ كلّ ما لا تطاله يداها البشريتان القاصرتان ، لا يطال إلا بيدٍ من ربٍ حكيم .. لهذا راحت تبحث عن كلّ الأشياء التي في متناول يدها .. فوجدت أن ما لديها ليس بالقليل بل وجدت كنزاً لم تكن تشعر بوجوده من قبل ... إنّها تملك الكثير الكثير .. لكنّ الشيطان ساورها ليكسر فرحتها بنعم الله ويضائل حمدها وشكرها له (الأخلاق .. الثقافة .. الأدب .. عملة لا يتداولها الناس في هذا الزمان وبريق لا تراه العيون في هذا المجتمع ) وركنت إلى هذا الخاطر الخبيث لحظة خاطفة

فتمادى الوسواس الخناس (كثيرات هن اللواتي يجمعن أطراف المجد كما يقال..مال وجمال وكمال .. أنت لست أقل منهن .. إلا حظاً .. وكأن القدر يعاندك ويتلذذ بحرمانك ) وراودتها مكيدة الشيطان طويلاً .. قبل أن تكسر سلاسلها .. وتنفض عنها أغلالها قائلة :

– عندي كلّ شيءٍ وتنقصني هذه .. ولا بدّ أنّ اللواتي لديهن ما ليس عندي تنقصهن واحدة ما .. وهكذا هي الحياة الدنيا .. لا تكتمل في يد مخلوقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

# للموت حكاية أخرى

وقفتُ على حافة القبر .. على أطراف تلك الحفرة الصغيرة التي لا نأبه لها في حياتنا أو نأخذها بعين الاعتبار .. رغم أنّها مأوانا الأخير .. بل نهاية المطاف.

رمقني الحفّار ببرودٍ وقال وهو يشير بإصبعه إلى مجموعة من الحفر انتهى لتوّه من حفرها:

– هذا قبر فلان بن فلان .... وهذا قبر علان بن .....

وقبل أن أسمع تتمة حديثه صرخ في داخلي صوت وجل :

– من .....؟؟؟؟..... هذا أنا ... إذن هذه هي حفرتي .

سألته على الفور:

– هل أنهيتها تماماً ...؟؟ لا أظن .. لا .. إنها تبدو أصغر مما يجب .

حدجني الحفار بنظرةٍ يختلط فيها – أو هكذا خيّل إلي – الاستنكار بالعتب أو الغضب .. واللامبالاة بالشفقة أو الاستهزاء .. وقال :

– المقاسات لدي دقيقة يارجل ... جرّبها .

وظننته يقول جرّبها فدهشت :

– أجرّب ماذا..؟؟؟؟ .. لا .. لا هذا غير معقول أنت تسخر مني .

أشاح بوجهه قائلاً :

– لا وقت عندي للحديث ... لدي عمل كثير...

وأعرض عنّي وقد حمل معوله وهو يتمتم .. (قائمة الأسماء لا تنتهي أبداً هي دائماً في ازدياد ) وراح يعمل بصمته المعتاد وبرتابته الأبدية غير آبه بي ولا مكترث بوجودي ... وكأن الكون يخلو إلا منه.

اقتربت من الحفرة أكثر فأكثر .. أغراني الفضول بالإقتحام وتعاكست معه في الأعماق رغبة بالهروب .. إلى أين ..؟ إلى أقصى الأرض ..؟ إلى أبعد نقطة من هنا ..؟ سخرت من نفسي .. ها .. هذه التي لا مهرب منها مهما ابتعدت لم أكن خائفا اقتربت أكثر .. وشعرت بجاذبية تسحب أقدامي للنزول .. وتردد الصدى يقول لي ( جرّبها ) .. هبطتُ .. جلستُ .. راعني مجلسي قليلاً وسرت في جسدي رعدة عظيمة .. كنت أنظر إلى ما يمتد أمامي من حفرٍ كثيرةٍ .. فأشعر بالأنس .. لست وحدي من سيلقى هذا المصير .. هناك الكثير من الحفر التي تغطي وجه الأرض والآخرون مثلي مدعوون .. ولن يتخلف أحد .. ورحت أنظر إلى الحفار وهو يستمر في عمله دأباً دون إبطاء أو إمهال أو توقف .. فأتساءل .. ماذا به ..؟؟ لم يعد ينظر إليّ .. ولم يعد يشعر بوجودي .. لم يترك لي سوى كلمته الباردة كالموت (جرّبها ).

بدأت بالاضطجاع ببطءٍ شديد .. والأرقام تتقافز في عقلي المشحون بطاقةٍ غريبةٍ .. تاريخ مولدي ، تاريخ اليوم .. حسبتُ وطرحتُ .. إذن لقد بلغت

الأربعين .. إنّها السنّ الفيصل التي تحدث عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

تلفتُ حولي .. لم أعد أرى سوى ذرات التراب عن يميني وعن شمالي ، والسماء تمتد فوقي واسعة رحبة بلا حدود .. يا الله .. رأسي يتوسد تراب الأرض وعيناي تشخصان إلى سماوات الكون اللامتناهي .. أردت أن أغمض بصري .. أن أسدل جفوني اليقظة .. ترددت .. وكأني خشيت أن يباغتني التراب فينهال فوقي .... أنا الآن قادر على الوقوف ولن أمكنه مني ، سأثب وثبة واحدة وأقف على قدمي ... وعندها لن يتطاول إليّ .... اطمأننت إلى قدرتي على الهرب فاسترخيت ... استرخيت أتحسس أبعاد الحفرة .. شعرت برطوبة المأوى .. أو ربما بحنان أمّنا الأرض .. لا فرق فهنا تنتهي عذابات الحياة وأوجاعها ... هنا تخمد نار الشرور والآثام .. هنا تنطفىء لواعج الأحزان والأتراح .. هنا تتوقف دموع المصائب والويلات ..

شعرت بالراحة شيئاً قليلاً ، ولكن الإحساس بالضيق تملكني وضغط على أعضائي .. تمتمت غاضباً ... قلت له إنّها أصغر مما يجب فسخر مني ... هه المقاسات لديه دقيقة ... ولكن لعله أخطأ .. و هذه ليست حفرتي .. لكنّه كان يبدو متأكداً من الاسم .. ماذا سأفعل الآن ؟ أين هو..؟؟

رفعت رأسي وعدت إلى حالة الجلوس .. نظرت إليه لقد ابتعد كثيراً .. صار بيني وبينه آلاف الحفر ولن يصل صوتي إليه مهما صرخت ..

.... ماذا سأفعل ....؟

أحسست بلحظة مواجهة المصير منفرداً .. تنشب مخلبها في عنقي كتنين خرافي ... لتشعل في عروقي دماء المراقبة والحساب .. ولتتغلغل في خلاياي نسغ البحث عن السكينة والهدى .. ولتتحول في صحائف الملكين إلى سطورٍ من نور تجمع حروفها كلّ آيات البرّ والخير ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم ( إنّ المؤمنَ في قبرِهِ لفي رَوضةٍ خضْرَاءَ فَيُرَحّبُ لهُ قبرُهُ سَبْعُون ذراعاً ويُنّوَرُ له كالقمرِ ليلةَ البدرِ) .

# الذاكرة والصابون

سار على غير هدى .. وحملته خطاه التائهة فوق أرصفة الطرقات هنا وهناك لا يلوي على شيء.

كان يفكر فيما آلت اليه أحوال الناس وأوضاعهم ، وفيما حلّ بعلاقاتهم من فتورٍ وبرودٍ ولامبالاة .. تساءل .. ماذا حلّ بهم ..؟؟ هل غمرهم النسيان أم التناسي ؟ هل استغرقهم الجهل أم التجاهل ؟ هل أصبحت قلوبهم هواء وذاكرتهم صابون ..؟؟؟.

نعم .. الصابون هذا الاختراع الحضاري الهام ... كم ساهم في تحقيق أغراض حضارية حميمة .... وكم حقق من مكاسب مادية وإنسانية عظيمة ... أشاع لمعان النظافة وبريقها ... وأبعد شبح الجراثيم والأوبئة ...

واليوم .... وفي جيب إنسان هذا العصر .. تقبع صابونة صغيرة .. مع الهوية الشخصية ورخصة القيادة ودفتر الشيكات .. في مكان ما من الذاكرة وتحديداً في مقر الاستقبال وفي صالة الدخول .. وعلى هذا اللوح الصغير من الصابون تكتب أسماء الكثير من الأشخاص وترسم ملامح وجوههم ... والمبالغ المستدانة منهم ... وأرقام هواتف الذين لا تكون صلاتهم غير القربى والقربى

وحدها لا تكفي ، بل ليست مبرراً لازماً وكافياً لاستمرار الصلة ما لم تتوجها المصلحة المادية ... الهوايات الأثيرة التي تجعل للحياة معنى إنسانياً عميقاً .... الأعمار الحقيقية للنساء .... عدد المغامرات العاطفية للرجال ... المناسبات السعيدة التي يتم فيها تبادل الهدايا .... ومواقف المعروف المبذولة .... والنصائح المسداة و .... و ..... وكل ما يغدو هامشياً لا قيمة له بمجرد تدوينه ....

وهكذا غابت ... وتغيب من الذاكرة الاعتبارت المطلوبة بين الأفراد والالتزامات الواجبة تجاه الآخرين ....

وهكذا ألغيت بعض الحقوق المتبادلة وأهملت فكرة الوفاء المتداولة وصارت الوجوه بغير ملامح .

هزّ رأسه بأسى وهو ينظر إلى واجهة محلٍ تجاري كانت تغص بأنواعٍ مدهشةٍ الاختلاف من الصابون ... شكلاً ... ولوناً ورائحة ... وتركيباً كيميائياً ... ثم أشاح بوجهه قائلاً :

– كل شيء ..... كل شيء صار على طريق الاستهلاك.

# أثناء زيارة عائلية

في غرفة الضيوف في منزل السيد " س " اجتمع الأصدقاء الثلاثة يتباحثون أمر غياب صديقهم الرابع " د " قال صاحب المنزل :

– هل تعلمون لماذا تغيّب صديقنا عن حضور اجتماعنا الدوري هذا ؟

– نعم .... نعم ... إنّه في ورطةٍ مع أهل زوجته الأولى .

– حقاً ؟؟ وهل تزوج بثانية ؟ متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

– منذ أسبوع عقد قرانه الثاني .

– سرّاً أو علناً ؟.....أقصد بالنسبة لزوجته .

– كان الأمر مطروحاً بينهما ... ولكن ربما على سبيل المزاح أو التحدي أوالمعاندة ... لقد أخبرني ذات مرّة عن عزمه على إيجاد شريكةٍ حقيقيةٍ لحياته تتفهمه وتسعده ، فقد كان شقياً بزواجه الأول ، وكلّ الظنّ أنّه كان زواجاً تقليدياً .. أي خطبة أهل ، وفي فترة الخطبة .. حاول كل من الطرفين أن يظهر أحسن ما لديه .. تكلفاً لا طبعاً .

– هذا ليس سبباً أساسياً في شقاء الأسرة .. أنا مثلاً .. كان زواجي تقليدياً ولكني والحمد لله ... أعيش مع زوجتي حياة مستقرة.

– أظنّ أنّ الأمر يتوقف على بذل جهدٍ كبيرٍ من الطرفين على حدّ سواء.

– وماذا يفعل الرجل لو كان وحده من يقدم التنازلات والمحاولات لإرضاء الزوجة التي لا تبالي بغير مصلحتها ؟ سيفشل حتماً .. وسيصل إلى مرحلة يائسة يبحث فيها عن مواصفات امرأة أخرى بديلة تحقق له التوازن والتعويض.

– هذا صحيح ... فإن كان أصيلاً يخاف الله والعاقبة ، يبحث عن زوجة في الحلال .. وإن كان غير ذلك – والعياذ بالله – انحرف وضلّت خطاه في شوارع الليل.

– ولكنّ الزواج الثاني يسبب دائماً ... أو غالباً ... من المشاكل ما يزيد الطين بلّة .... خصوصاً في حالة وجود أطفال وإصرار الأولى على الطلاق.

– في حالة صديقنا غدا الزواج الأول بمثابة تجربة واقعية لاكتشاف ما يناسبه ومالايناسبه من طباع وأخلاق ومواصفات في الزوجة.

– كان من الممكن تحديد ذلك مسبقاً .. ألا يعرف الرجل منا نفسه وما يلائمها.

– نعم .. نعرف .. ولكن بشكل نظري بحت ، وعند التطبيق تختلف ردود الأفعال.

– فعلاً هذا صحيح .. ففي كثير من الأحيان يكون في مقياس المرء أو تصوره لنفسه .... ما يريد وما يتمنى أن يكون عليه لا ما هو عليه فعلاً وسلوكاً.

– إذن هي فكرة ساحرة حقاً ... ومن خلال الزواج الأول يفهم الرجل نفسه فعلياً .... ويكوّن صورة مثالية متكاملة عن طبائع الزوجة التي يستطيع

الاستمرار معها ، ثم يبحث عن المواصفات المطلوبة ويكون الزواج الثاني مستقراً تماماً وسعيداً حقاً.

– هذا تخريف .. فما يكون مصير الزوجة الأولى والأولاد إن وجدوا ؟.

– فليكن الزواج الأول إذن مشروطاً بعدم الإنجاب حتى ظهور النتيجة وفي حالة عدم الانسجام يكون للأولى أن تختار البقاء على ذمّة الرجل أومفارقته.

– تخريف جديد .. فلو بقيت ... ستكون حياتها هامشية ومشلولة ومعلقة ... ولواختارت الفراق فإنها ستكون وحدها من دفع الثمن غالياً لهذه التجربة السخيفة.

– ما هذا يا رجل ...؟ سندعوك نصير النساء .. أنت معنا أو معهن ؟؟.

– الظلم حرام .. ولابد من وجود حلّ آخر غير هذا .. ولا أحد يأخذ من دنياه غير نصيبه منها.

.....

وفي غرفة للنساء المدعوات أيضاً .... كان زواج السيد " د" محور الحديث الدائر بين زوجات الأصدقاء .....

قالت إحداهن :

– مسكينة .... لقد تزوج عليها بعد عِشْرةٍ دامت تسع سنين.

– ماذا ؟؟ حقاً ؟؟ يا له من ناكر جاحد.!!

– هه .. أظنه لن يجد مثلها أبداً ... فلقد كانت ربة منزل ممتازة وأمًّا تكاد تكون مثالية ..... إنها تعمل في الداخل والخارج.

– اللئيم ... يجب ألا تبالي به.

– والله .... لو فعلها زوجي ..... لقتلته ولقتلتها معه.

– أما أنا فلن أبالي به ... وإن باعني أبعه .. يكفيني أنّي قد قطفت زهرة شبابه .... وإليها أرمي بقاياه .... ثم لا أكون له زوجة بعد ذلك.

– الرجال أنانيون ... وفي سبيل رغائبهم يدوسون كلّ شيء حتى فلذات أكبادهم.

– هه ... لقد كان كريماً معها ... فقد ترك لها الخيار في أن تظل على ذمّته لتباشر تربية أبنائها بنفسها على أن يؤمن لهم جميع حاجاتهم.

– طبعاً ... يتخفف من المسؤولية .. ليتفرغ لعروسه الجديدة ويتركها تغرق وحدها في همومهم ومشاكلهم لا يرتفع لها رأس.

– لو كنت مكانها ... لتركتهم لأبيهم يثقلون كاهله ويفسدون سعادته.

– لاحول ولا قوة إلا بالله .. الأبناء دائما يدفعون الثمن .. وقد يفقدون كلا الطرفين .. فيضيعون ، بين زوجة الأب ، و زوج الأم ، أو يفقدون أحد الطرفين فتكون تنشئتهم مبتورة وناقصة ليصيروا في المستقبل أفراداً غير أسوياء.

– وما أكثرهم في مجتمعنا ، لا لشيء إلا لسوء العلاقة بين الزوجين وسوء المعاشرة .. فإن استمرا كانا كمن يعيش في فوهة بركان ينفجر كلّ آنٍ ليمزّق

الأمان النفسي للأولاد وإن افترقا كانت من نتائج الفراق حياة التشرد والضياع والإجرام أحياناً.

– كان الله في عونها وعون أولادها فيما ينتظرهم من أيام ، وعسى أن يبدلها الله خيراً كثيراً فيهم ومنهم .

# سرّ أبي فدوى

رنّ جرس الباب طويلاً قبل أن تفتح الست أم سالم لكن سالم ظل واقفاً لعلمه أنها في انتظاره ... إلا أنّها امرأة كبيرة في السن وبطيئة الحركة وما إن فتحت له الباب حتى بادرها قائلاً :

– السلام عليكم ياأمي .. هل أنت وحدك ..؟ أين زوجة أخي والأولاد.؟

– وعليك السلام يا ولدي .... تفضل .

وسارت إلى جواره تتكىء على ذراعه .. وتخبره بذهاب أهل البيت إلى أقربائهم ... ثم أضافت :

– ولما بقيت وحدي ، اتصلت بك أريد محادثتك في موضوع هام.

– خيراً يا أماه .....؟؟ خيراً إن شاء الله .

نظرت الأم إلى ولدها بحنان ولهفة .... وتساؤل :

– هل تعتبره تطفلاً أو تدخلاً في الشؤون الخاصة أن تهتم الأم بأحوال ابنها الشخصية ؟

– لا ..... لا هذه ولا تلك .

– حسناً يا بني .... وبشكلٍ مباشر ... فإنّ أمينة ابنتك الصغرى صارت في الصف الأول ... وخلال هذه المدة الطويلة لم .....

قاطعها الرجل قائلاً :

– أماه .... لقد فهمت ما ترمين إليه ..... إنّ الله قد رزقني ثلاث بنات وهو الذي يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور وأنا أحمده وأشكر فضله .. إنّهن يملأن بيتي بهجة وحبوراً ومن خلال آمالهن وأحلامهن تتجدّد آمالي وأحلامي ... وأنت يا أمي أول من يشهد لهنّ بحسن الأدب وكمال الأخلاق.

– نعم والله .. ولكن .. لعلّ الله يرزقك ولداً ، يحمل اسمك ويحفظ مالك ، ويساعدك في عملك ... ويداري شيخوختك ... هيا يا ولدي ... فأنت لم تعد صغيراً .

– الأمر بيد الله .

– آمنت بالله ... ولكن لكلّ مجتهد نصيب .. وأنت ميسور الحال فاذهب إلى أحسن أطباء البلد واطمئن على وضعك ... وإلا .. فأنت قادر على إعالة بيتين ... تزوج يا ولدي فمن حقك أن تطلب الولد ... ولك عندي عروس مناسبة تماماً .. اعتمد على الله وعليّ .. ولكلّ شيء حلّ ..... فقط لا تترك الزمن يمر هكذا.

– حسناً ..... حسناً .... إن شاء الله .

– في كل مرة تقول لي هذا ثم تغيب عنّي .... وتمرّ الأيام الطوال ولا أرى جديداً .... قل بصراحة ولا تخْفِ عنّي شيئاً .

– ليس هناك ما أخفيه .... إنما الأمر بيد الله .

.....وساد الصمت برهة .....

حاول سالم تغيير الحديث ، فتبادل مع والدته أحاديث شتى ثم استأذنها في الإنصراف طالباً منها الرضى والدعاء .

وخرج أبو فدوى ... خرج يمشي بتكاسلٍ وبطءٍ شديدين والذكريات الكثيرة تدور في رأسه المثقل ... والأفكار والخواطر والأحلام تعصف بوجدانه الطيب .. لقد كان .. وككلّ رجل يحلم بولد ذكر .. يسميه على اسم والده (أمين) ولكن زوجته أنجبت له الطفلة الثالثة .. ولما علم بوضعها الصحي الخطير الذي يمنعها من حمل رابع .. حيث قرر الأطباء حاجة زوجته إلى عملية تلغي إمكانية الحمل نهائيا أيقن أنه قد أصبح أبو فدوى ثم أطلق على ابنته الأخيرة اسم أمينة ...

وقفزت إلى ذاكرته صورة قديمة عمرها أكثر من خمس سنوات كان فيها يقف أمام باب غرفة العمليات وحده ... دون علم أحد من الأقرباء أو الأهل لقد أراد لهذه الخطوة أن تتمّ في سرّية تامة ليتحاشى مواقف لا يرغب بها وضغوطاً يمكن أن يتعرض لها واكتفى بما تلقيه الحياة في طريقه من تحديات وامتحانات لصبره من خلال رجل يلاعب صبيانه في الحديقة .. وآخر يصطحبهم إلى مسجد الحي .. وثالث يعلمهم حرفته ليتوارثوها أبا عن جدٍّ .. واحتمل أبو فدوى بإيمانه .. قضاء الله وقدره .. ورضي بقسمته هانئاً قانعاً وما كان أبداً ليبحث عن الحل البديل في طلب البنين من زوجة أخرى غير أم فدوى .. هذه

الغالية المحببة ... الأثيرة لديه المكرمة عنده .. إنها أغلى وأكرم من أن يجرح إحساساتها أو يطعن أنوثتها .. أو يسيء إلى مشاعرها ... مهما كانت الأسباب أو الغايات.

وراح سالم يكرّس جهده .. ويجنّد قواه وقدراته وجاهه وكلّ ما يملك في سبيل أن تغدو فدوى وأختاها مضرب المثل في الأخلاق الكريمة والثقافة العالية والمواهب المتميزة والشخصية المتكاملة.

....ومرت الأيام وهو يحمل سرّه الدفين .... ويُوهم كلّ من يسأله من خاصته أنّ الأمر طبيعي ... ومقدور عليه في حينه ويكتفي بالوعود والتمني .... ثم ينسحب إلى قعر ذاته مغموراً بالرضى ..... مشحوناً بالإيمان ..... ومكتفياً بالحب والسعادة .

# وما يزال البحث عن الهوية مستمراً

بحذرٍ شديدٍ ملأ البيانات المطلوبة لاستخراج جواز السفر ، بحذرِ مَنْ أوقعه الخطأ والتسرع فيما لا تحمد عقباه ... فهو وفي كلّ مرةٍ ... عند الحدود يسقط صريع خطئه ... يُحتجز دون الركب ويُستثنى من القافلة ليظلّ وحده فوق ذلك المقعد الحجري متسمراً ... يرمق اختفاء المسير تحت خط الأفق.

ولأنه يعشق الرحيل الأبدي ... ويحب التجوال الدائم .. ويهوى الآفاق المتجددة ... ولأنه رجل عنيد ذو كبرياء ... فإنه يكثر من التلفت يمنة ويسرة ليتأكد من خلو المكان .. قبل أن يذرف دمعة باردة .. تهمي بكل ما يعتلج في صدره .. من إحباط يتكرر في صورٍ مختلفة ... وأسى يلازم كل بدايات رحلاته ... ومعاناة لا تجني في أعماقه اللاهثة عبثًا إلا السراب...

لقد قال له رجل الحدود بعد أن دقق في جوازه وفي جوازات الآخرين جملة قصيرة جداً .. جملة قاتلة تغتال انطلاقه .. قال له " لست منهم " .....

ثم ابتسم له بأسفٍ .. معتذراً .. أو مواسياً ....

وهكذا ... ودائماً وبإشارة صغيرة من الحدودي .. تتوقف عجلات مراكبه .. يتوقف الزمن بالنسبة إليه وحده .. يتوقف لحظات ليعود به إلى نقطة الصفر من جديد ، وليضع خطاه المترنحة أمام محاولة جديدة .

تعددت إخفاقاته كثيراً .... وراحت الجملة التي تعترض طريقه تدوّي في نفسه "لست منهم .. لست منهم" حتى أفاق إحساسه بعدم الانتماء فأدرك تورّطه بالضياع والغفلة .. وأيقن أنّه بين براثن الأهواء كريشةٍ في مهبّ الريح.

وعندما عضّه ناب الفشل .. وعطله الإخفاق عن التقدم ولو خطوة واحدة في طريق الحياة ..... استيقظ في داخله السؤال الكبير ... استيقظ السؤال الأهم ....؟؟؟

قال في نفسه "إذا كنت دائماً .. وفي كل اتجاه .. وعند أي حدود .. وضمن أي مسير .. لستُ منهم .. فمن أنا إذن ؟؟؟ وممّن؟؟".

وراح يبحث في مجالات الانتماء التي يتمايز بها البشر .. وراح يفرز هوياتهم الشخصية باعتبار من هم .. وما يتقنون .. ومن يكونون .. وكيف يعيشون .

وتحت كلّ عنوان وضدّه .. وتحت كلّ سمة ونقيضها .. وتحت كلّ صفة وعكسها .. راح يدوّن الصفات اللازمة والافتراضات المتوقعة والأساسيات المطلوبة .. وبدأت التصانيف المدروسة تملأ أوراقه الخاصة لتكون مرجعاً مثالياً للمقارنات التي قرر أن يجريها في بحثه الدؤوب عن إجابة للسؤال الكبير.

... أهل العلم ..؟؟؟ أولئك الذين يملكون من قوة المعرفة ما يجعلهم يواجهون الأيام بسلاح الحق والعدل والفهم العميق يعالجون مجمل قضايا حياتهم معالجة موضوعية ومنطقية سليمة فيردّون الظواهر إلى أسبابها ويضعون الأحداث في

نصابها .. يرفعون راية العلم كل آن وينزلون بساحته أخذاً وعطاءً .. لا يفترون ولا يغيبون.

... أهل الجهل ..؟؟؟ من لا يملكون على أطراف ذيولهم إلا الخرافة والتفكير الضّحل .. فلا تتفسر لديهم الأمور إلا برؤية جاهلية ارتجالية مضللة .. يعيشون الفراغ والعبث والسخافات.

... أهل الدين ..؟؟؟ أولئك الذين تستغرقهم الطاعات في الليل والنهار وعلى مدى دقائق العمر .. يكنزون من الأعمال الصالحة والبر ما يثقل موازينهم ويرضي ربهم ..ويرتعون في رياض جنات الأرض من حِلَقِ الذكر والفقه والعبادات.

... أهل الدنيا ..؟؟؟ من تسير بهم متعهم وملذاتهم في دروب الانحراف أو الآثام .. صغيرها و كبيرها .. باطنها و ظاهرها دون خشية مما يتوعدهم به ربهم من حساب أو عقاب.

... الأغنياء السادة ..؟؟؟ من يملكون بالجاه .. والمال .. والسلطة تغيير ظروف حياتهم وفقاً لرغائبهم وأحلامهم .. يمتلكون المبادرة .. وصنع القرار .. واتخاذ الفرص.

... الفقراء العبيد ..؟؟؟ الذين سُلبت حرياتهم فما أبقيتْ لهم الأرض ولا السماء .. إلا من خلال إرادة سادتهم وقراراتهم ، يطل بهم فقرهم على هاوية

عميقة من الحرمان والشقاء والعجز .. يتخلون فيها عن مقومات إنسانيتهم ويفقدون الدافع والباعث لاتخاذ الآمال أو المطامح.

... وغيرهم آخرون ... وغيرهم آخرون ...

وهكذا .. كان يذيّل كل ورقة تخص فئة معينة من الناس بالكلمة التي يغصّ بها دائماً " لست منهم " وقد أدرك تماماً أنه لا ينتمي لا إلى هؤلاء .. ولا إلى هؤلاء .. ولا إلى هؤلاء.

وتوقف عن المقارنة بينه وبين الآخرين .. ليغوص في أعماق نفسه باحثاً عن هويته الخاصة .. وعن بصمات أصابعه.

راح يستلهم التفاسير والمبرارت .. ويبحث في الأسباب والمسببات ، يستنطق ذاته المتهاونة والمليئة بالتناقضات ، والتي تفقده الانحياز السليم .. ويتهم كيانه المتشبّع بالحياد الفظيع ، والذي يشتت قواه .. ويفرّق هدفه .. ويلغي توجهه ...

وكان يخجل من سلبية نفسه أحياناً .. ويلتمس لها العذر في الأحيان الأخرى .. ويظلّ يراوح في موقعه متململاً دون راية أو شعار .. إلى أن أدرك وتحقق أن عدم الالتزام يودي به إلى الطريق المسدود دائماً .... وأنّ اللاانتماء يمنحه النتيجة العقيمة أبداً .... وأنّ الحدودي سيظلّ يصادر كلّ أحلامه ويعطل كلّ أسفاره .. حتى يصير قادراً على اختزال هويته الحقيقية في جواز السفر.

# استقبال خاص لرأس السنة

قبل أن ينتصف الليل بساعة على الأقل ... كنت فيمن كانوا يتسمرون أمام التلفاز .. ويدي تمسك بجهاز التحكم عن بعد وتمارس هوايتها المفضلة في التنقل بين القنوات الفضائية .

هي ليلة لا كالليالي ... تمتد بطعمها الخاص ، وتنتشر بوشاحها الأسود فوق وجه الأرض ، والعالم بأسره من أقصاه إلى أقصاه يشهد مرورها .. ويحتفل في هذه السويعات القليلة .. إنها ليلة رأس السنة .. وشعوب الدنيا وقبائل البلاد تمارس أعيادها واحتفالاتها .. كلّ على طريقته الخاصة ..... وتنقلت وأنا أغوص في أريكتي المريحة في غرفة جلوسنا الدافئة بين البلدان والأصقاع ... حارها و باردها ، متقدمها و متخلفها ... فرأيت المهرجانات والسهرات والكرنفالات ... وتقلبت بين الكثير من البرامج الترفيهية والمنوعات .. والكلّ يشهد رحيل العام السابق وقدوم العام اللاحق ، بينما تتأرجح هذه الدقائق الحرجة مشحونةً بمشاعر مختلفة .. بين ما مضى وما سيأتي .. بين الأسى على مافات والأمل بما قد يأتي .. بين وداع الأمس وانتظار الغد ... لقد انتهى عام كما انتهت أعوام قبله وتوارى خلف حجب الزمن الماضي ، وتكدّس مع

سابقيه في انتظار يوم النشور وهو يضمّ بين يوميه الأول والأخير كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..

اعتدلتُ في جلستي ونظرت إلى ساعة الحائط .....

إنها الثانية عشرة إلا ربعاً ... وإنّها الدقائق القليلة التي ستضعنا فوق أعتاب عام جديد .. وفي هذا العام سأبلغ من العمر الخامسة والثلاثين ..

وضعتُ رأسي بين كفيّ ... وعيناي تتجهان دون تركيز إلى الصور المتلاحقة على الشاشة ، بينما كانت تدور في خلدي أفكار و أفكار أكثر تلاحقاً وتتابعاً ... وامتدت يدي لتطفىء التلفاز وقد استقر في نفسي أن أستقبل العام على طريقتي الخاصة متفلتاً من مدارات الآخرين .. ومستقلاً عن أساليبهم وطرائقهم .. وانطلقت من قناعاتي الراسخة ومبادئي الأصيلة في أن الزمن في عمر الإنسان محسوب له أو عليه وأنا إن كنت قد دخلت سن التكليف في عامي الخامس عشر .. فإنني وبحسبة بسيطة ... أجد عشرين سنة حتى الآن هي نتاج ما قدّمت يدي وهي إمّا لي .. و إمّا عليّ .. وتساءلت ..... ترى ما الذي يحويه كتابي خلال هذه المدة من الزمن ..؟؟ والكاتبان لا يغفلان أمراً مهما صغر أو كبر ، وتخيلت نفسي يوم الحساب ، أفتح كتابي وألبي أمر ربّي .. " اقرأ كِتابَكَ كَفى بنفسِكَ اليَومَ عليكَ حَسيباً " .... ومرّت عيناي على السطور ....

هاهي خطوط حمراء وكذلك دوائر وإشارات باللون الأحمر تنذر بالخطر .. إنّها ذنوب متفاوتة .. تتوزع هنا وهناك .. تكثر في أيّام وتقلّ في أخرى ..

وشعرت بالخجل الشديد ... أهذا ما سألقى به وجه ربّي ... ترى لو أردت المثول – ولله المثل الأعلى – بين يدي معلم مدرسة أو رئيس عمل لأمر ما ، أفلا أتحيّن الكمال والإتقان والصواب لأنال رضاه .. فكيف بي وأنا ألقى ربّي بصحائف أعمالي تغصّ بالنقائص والمعاصي والتهاون والتفريط ..... ولبثت في خجل العاصي وندمه ، حتى أدركتني نفحة كرم الله لتلامس قلبي المرتبك .. ولتحيل الظلمة في أطرافه نوراً يتدفق بالخير والرحمة ..

تذكرت وعد ربّي بإنّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السّيئاتِ .. فانتعشت روحي رجاءً .. وطابت نفسي تفاؤلاً .. إذ أن الأمر لم يخرج من يدي .. والكتاب لم يغلق بعد .. وما زلت بفضلٍ من الله ، وبهذه الأنفاس التي تتردد في صدري ، وبصدق وإخلاص النية .. قادراً على تصحيح الأخطاء ، وتقليل الذنوب .. بل ومحو ما مضى منها .. وتذكرت أمر رسول الله بالاستغفار في اليوم سبعين مرة .. وفي رواية مئة مرة ... ورحت أحصي عدد الأيام في عشرين سنة .. ثم جعلت لها ورداً يومياً ، فلو استغفرت في الصباح ألفاً وفي المساء ألفاً وما بينهما مئة ولمدة عام .. رجوت الله أن يمحو سالف ذنبي وأن يجمّل كتابي .. لعلي أكون فيمن قال عنهم جلّ وعلا " هَآؤُمُ اقرؤوا كِتابيَهْ " ... وفيمن قال

عنهم الرسول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلّم " طُوبَى لِمَنْ وُجدَ في صَحيفتِهِ استغفاراً كثيراً ".

وقررت أن يكون هذا العام عام عبادة الاستغفار .. وسارعت إلى مسبحتي التي قررت كذلك أن أجعلها رفيقة الدرب طيلة عامي هذا.

# في منتصف الطريق

مثل أسراب الطيور المهاجرة التي تغادر أعشاشها في الشتاء وتفتح أجنحتها للفضاء باحثة عن آفاق الدفء .. كانت أسراب وأسراب من المشاعر الحميمية تهاجر .. ولكن هذه المرة دون عودة .. وفي منتصف الطريق .. في طريقه إلينا ، استوقفته فلول تلك المشاعر وهي تنسحب إلى الوراء هاربة من وجه الطوفان .

بادرها الحب قائلاً :

– إلى أين أيها الراحلون ..؟ مالي أراكم تتسابقون في التلاشي والاختباء ..؟؟

ردّتْ جميعها .. وبصوت جماعي محبط :

– لم يعد لدينا مكان هنا .. لقد فقدت حرارة الدماء من العروق وحرارة العاطفة من القلوب .

– ماذا .. ؟ ماذا تقولون ؟

– لقد صارت الكلمات تخرج من فوق الشفاه مكسوة بالصقيع تجرح الخدود بدلاً من أن تكسوها بحمرة الخفر وبحيوية الانتشاء لقد تحولت إلى مجرد مجاملاتٍ باردة .. سخيفة الوسيلة .. باهتة الغاية ، وكي لا تفقأ شظاياها البلهاء العيون ، ودرءاً للخطر والأذى فقد تحجرت العيون وتاه بريقها .. وأُلغيت نهائياً أسفار حروفها إلى بوابات البوح والتحاور ، فلا تشدّ إليها

ولاتنشدّ ، ولا تجذب نحوها ولاتنجذب .. وصار يعلوها الصمت والسكون كصورٍ معلقةٍ على الجدار.

لم يصدق الحب ما قالته المشاعر الخائفة المهرولة صوب البعيد اعتبره ضرباً من المبالغة والتهويل .. وراح يستوضحها أكثر وأكثر .

– إنّ مواطنكم القلوب .. فكيف هجرتم مواطنكم ؟

وجاءه ردٌ حزين زاده ألماً :

– كانت القلوب في الماضي .. خضراء أو حمراء .. لا فرق ففي كلا اللونين حياة ثرّة .. الأخضر مهرجان نضر فوّاح للعطاء والفرح والأغاريد .. والأحمر اشتعال خصب متلألىء للودّ والشوق والأماني .. أما اليوم .. فقد صارت ثلجية .. ثلجية اللون واللب .. تقطن في الصدور ثم لا تشيع فيما حولها إلا البرودة .. والجمود .. فلا تواصل ولا تآلف ولا تلاقي.

حزن الحب كثيراً .. طأطأ رأسه .. قال :

– لقد تغيّروا كثيراً .. ولكن لماذا ...؟

– صدّقنا أيّها الحبّ المبجل .. لقد تحوّل نهر الاستهلاك إلى طوفان يسحب أمامه أيام البشر المثمرة ، ويبدد غلالهم وجهودهم المتواثبة بل إنّ الاستهلاك التجاري عمّ الأقوال .. والأفعال والأحوال .. وصارت مواضيعه تصيبهم بالتخمة فيما يرغبون .. وبالحيرة فيما يختارون .. ثم في النهاية تأخذ ما بأيديهم .. تاركة خلفها خطوطاً وأخاديد لاهثة وراء المزيد ، لا تأنس إلا

بلمس الذهب الذي يشبع نهمها المتزايد غير عابئة بالأيدي المفتوحة تجاهها .. التوّاقة إلى لمسة أخوة أو تصافح صداقة .

– كفى .. كفى ..

قالها الحب بضيق بالغ ... ولبث حائراً متردداً قبل أن تفيض في جوانبه رحمة حقيقية جعلته يقول :

– لعلنا نستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..؟!

مضت المشاعر ببطء في طريقها .. غير آبهة لقوله وهي تجيبه بيأسٍ ومرارة :

– كأنك لم تفقد الأمل بعد .. إنّهم الآن أيّها المبجّل جثث حيّة ، إنّهم جثث حيّة .

توسّل الحبّ إليهم راجياً :

– انتظروا .. انتظروا .. دعونا نحاول مرة أخرى .. دعونا نحاول.

وجاءه الردّ ضعيفاً وقد بعدت المسافة بينهم :

– لقد تغيّرت مناخات البشر .. وإن وجدت حبّاً أو طيف حبّ فإن ذلك من سرف القول أو من ترف الشعور.

وعاد للصياح :

– دعونا نحاول ... دعونا نحاول .

وجاء الصدى يتردد في أرجاء الكون مقلداً صوت الحبّ .. "دعونا نحاول".

# قصة ولادتين

كنّا مجموعة من الصديقات اللواتي يربط بينهن حبّ الأدب .. قراءة وكتابة واقتناء .. نتداول الكتب ونتبادل الحوارات في مضامينها ونكتب القصص والأشعار .. ونمارس النقد الذاتي عليها ، وكانت أوقاتنا غنية بكل ما هو ممتع ومفيد ، فمن حضور للمنتديات الأدبية .. إلى متابعة دائمة للجديد في الثقافة عبر كافة وسائل الإعلام .. إلى زيارة دورية لمعارض الكتب.

..... وأخذت مجموعتنا المختارة بالتناقص تدريجياً .. تتزوج الواحدة منا .. ثمّ تنغمس في حياتها الخاصة ، كامرأة عادية لا صلة لها بعلم أو أدب.

بدأت لقاءاتنا الشائقة تذوي وتخبو شيئاً فشيئاً .. صارت تفوح منها روائح أحاديث الطبخ ، وصنع الحلويات .. وتعلو فيها أصوات مشاكل الحماة والكنة .. بل لقد صارت تضج بحكايات الحمل والولادة ومتاعب الأولاد ..

وكانت كلّ محاولة مني لطرح موضوع عام أو نقاش هادف ، تقابل ببرود أو تسويف أو تنصل .. وفي أحسن حالٍ كنت أسمع العبارة التالية .. " غداً تتزوجين وتنتهي كل هذه الأحلام ".

..... وتباعدت مواعيد اللقاء ... وانفرط عقدنا حين اختلفت اهتماماتنا ..... وبقيت وحدي في عالم المطالعة والكتب والكتابة .. مع كل ما تمليه عليّ حياتي من معايشة للظروف والواقع .... وعايشت موهبتي المتميزة في

التأليف النثري والشعري بصمتٍ ومثابرة ... إلا أنّ ما أكتبه كان يظلّ حبيس الأوراق في درج مظلم.

ومرّت الأيام .. وتزوجت ... وكانت صورة الرفيقات اللواتي تخلين عن أحلام صباهن وأفكار عزوبيتهن أمام بوابة الزواج لا تفارق مخيلتي.

..... وقبلت التحدي ... وفي داخلي عزم أكيد على أن يستمر الحلم الذي بنيته خلال سني حياتي في ذات فاعلة مستقلة ، لا تذوب في دوامة الرتابة والارتجال والسطحية .. لعله يثمر في النهاية شيئاً ما.

وبعد أشهر قليلة ...

كان يتحرك في أحشائي جنين يشعرني بالأمومة الحقيقية ... ترافقه في ثنايا عقلي حركة حلم صغير أوسعت له من وقتي المنظم تنظيماً دقيقاً ، مكاناً كافياً لرعايته حق الرعاية ، ولإنمائه كما ينبغي .. حتى تحين ساعة القطاف ..

لهذا .. فقد كنت أعطي كل ذي حق حقه .. بيتي .. زوجي .. نفسي .. وأحلامي ..

وعندما حان الوضع .. وفي غرفة المشفى .. كان إلى جواري وليد جميل أحسنت الاستعداد لاستقباله .. ومجموعة قصصية أولى ، تحمل اسمي.

# القُدوم

انغرست أشعة الشمس في ذرات جليد الجبال ، فدمدم الثلج المنهار فوق السفوح ، واهتزت جنبات الوادي من تداعي الأسافين الهائلة ودوّى في الأرجاء هدير الصخور البيضاء المتساقطة .. باختصار .. خضعت الرحاب لجحافل الربيع الطاغية .. وخشع السكون لمقدمه المهيب.

أتى الربيع .... وفي كل عام يأتي مكللاً بغار الفخر والتميز .. تسابقه شرايين الحلم الفوارة ... تستجدي خصوبته أخاديد الطموح الظامئة.. تتنازعه حبّاً أيادي الشوق الراعشة ... وتنزرع على أطرافه غراس النهم الخالد ..

أتى .. وكما أتى في آلاف المرات .. وكما يأتي في كل مرّة عظيماً .. موفور الحسن والجمال .. طاغي الحضور والتلقي .. مترعاً بالبراعم الواعدة .. مثقلاً بالكنوز المخبأة تحت قطرة مطر .. فياضاً بالخير مضمخاً بالأريج والشذى .. ملوناً بألف لون ولون .. يتهادى في موكب ملكي فاخر فينثر فوق رعاياه أعطيات سخية وهدايا ثمينة ويمنح أكفّ التحيات الصادقة جوازات السفر إلى عوالم الرغبة والفرح والأمنيات .. يهب القلوب العاشقة أمان الوصول إلى بر اللقاء وضمان القبول في سِفر البقاء .. يعلن صراحة الكرم المطلق .. وإباحة الأمل المحقق .. يفتح بوابات الحثّ المهذب .. ويتيح لكلّ راغب فرصة الانبهار .. ثمّ يحمله مسؤولية الاختيار ... الاختيار بين الالتجاء إلى أسواره المنيعة والانتماء إلى مراقيه الرفيعة وبين الاختباء تحت أردية الفناء والانتهاء مثل أيام الشتاء .

# الكرسي والمرآة

نظرتْ في المرآة طويلاً .....

نظرتْ إلى وجهها المتعب .. تأملت ملامحه الهاربة من وجه الطوفان وتفرست في قسماته المسافرة إلى مدن الشوق ..

نظرت طويلاً .. طويلاً .. كأنها الملكة الشريرة التي كانت تستجدي من مرآتها الإعتراف بأنّها أجمل إنسانة في الوجود ولكنّها لم تكن مليئة بالشرّ ، بل بالحزن والألم والتعاسة ..

حدّقت في عينيها .... غاصت في سوادهما ، باحثة عن مدى دائرة الضوء وعما يمكن أن تتسع له من موجودات عالمها الجديد ..

نظرت إلى أهدابها .... ما بالها ؟؟ كانت تمتد حالمة وتشرئب بحنوٍ بالغ إلى الأعلى لتشع لطفاً واهتماماً وعذوبة .. ما بالها اليوم تبدو متقصفة مائتة كأنها ترزح تحت أثقال تشبه الموت ..

وأنفها .... أنفها الذي كان يتحرى في عوالم الشمِّ كلّ رائحة .. فيهيم إلى كلّ عطر وعبير ... ويتزلف إلى كلّ شذى وأريج ويتودد إلى كلّ فوّاح وعبق .. ما به ؟؟ يبدو اليوم منكفئاً على ذاته معرضاً عن الياسمين والزنبق ..

فمها .... ولله درّه " لساناً وشفتين " كان لا يكفّ عن القول " حسناً " ينصاع لأمر خالقه ، فيأكل من طيبات الرزق .. ويتقوى والجسد على الطاعة

قولاً وعملاً .. ينساب حديثا ألمعي المكنونات ، أريحي المعاني .. وينتقل في مساحات البوح الراقي فوق أغصان المشاعر والأحاسيس بلبلاً صداحاً لا تأسره سوى قضبان الكلمات المهذبة والألفاظ الرقيقة ... واليوم ... اليوم يصمت طويلاً ..

ذقنها .... التي ترتجف اليوم أسى وإرهاقاً ..

خصلات شعرها الفوضوية .... التي تحاكي نمط حياتها الحالي ..

ويداها ..... وبصعوبةٍ بالغةٍ .. رفعت يداها إلى المرآة ، قلبتهما ، راقبتهما ظاهراً وباطناً ... وبكت .....

يداها .... هما كنزها .. أو بعض كنزها المنهوب .. لقد فقدت تمام القدرة على تحريكهما .. لقد فقدتا الدقة والضبط .. فقدتا المرونة واللياقة ولم يعدْ باستطاعتهما صنع الأشياء الجميلة وهي هوايتها الأثيرة .. لا بل حرفتها .. ومصدر كسبها ورأس مالها ونبض حياتها وعالمها بأكمله .. ففي الأشياء الجميلة وفي صنعها كانت تعيش وتتذوق طعم الحياة .. واليوم .. أي شيء هي اليوم ؟؟؟؟

بكت .. بكت كثيراً .. تنهدت .. توزعت نظراتها بين يديها والمرآة .. والكرسي ..

إنّه هذا الكرسي .. مأساتها .. وقدرها .. ونقطة التحول الخطيرة في حياتها ..

وعادت بذاكرتها إلى ذلك الماضي عندما كانت في رحلة إلى شاطىء البحر ، تريد أن تكتشف عوالم جديدة في وطنها الصغير تراودها الأحلام العريضة في قضاء أجمل أيام العمر ..

كانت تصطحب معها لباس الغوص بعد أن وعدها والدها بزيارة الصخور المرجانية ..

كانت تحمل بين أمتعتها ريش الرسم والألوان وأوراقاً أرادت لها أن تخلد سحر الطبيعة وجمال الغروب ..

كانت تحمل أشرطتها المفضلة وأناشيدها وأشعارها ، وترسم في خيالها تناغماً رائعاً بين كلّ أنواع الجمال التي تستطيع حواسها الخمس التقاط إشاراتها في آنٍ معاً، لتزيد في عمق لحظتها العذبة ولتسكب في وجدانها المزيد من شحنات المتعة والبهجة ..

كانت تضج بالفرح وهي بين ذويها .. يقتسمون الألفة والسعادة والتراحم .. ويضاعف سرورها ضحكات الأسرة المتحابة عند كلّ موقف مرح هازل .. وكلّ مداعبة مازحة لطيفة .. ويملأ كيانها ثقة واطمئناناً الاحترام المتبادل بين الجميع ..

كانت جدّ سعيدة ..... جدٌّ سعيدة ..

ولم تكن تعلم بما تخفيه لها الأيام .. وما يخبئه لها القدر ..

وفي الطريق .... في الطريق إلى كلّ أحلامها المزعومة وعند ذلك المنعطف ... صار الحادث الأليم ..

ومنذ ذلك الوقت .. تغيرت محاور العالم بالنسبة إليها وتغيرت تبعاً لذلك إحداثياتها القديمة وخصائصها .. ولم تعد كما كانت ..

كانت أشبه بالفهد في انطلاقته كالسهم في الآفاق والبراري يختال برشاقته الفائقة .. و كأنه ذو جناحين قويين يحلق بهما قرب الأرض .. في عينيه بريق التوثب ، وفي قلبه نبض العنفوان .. في جسده ارتعاشات السرعة ، وفي عروقه دماء القوة .. والفهد يغدو مسخاً مشوّهاً في إهاب الغيلم .. فيحدّ ذلك الصندوق العظمي من حركته الوثابة ، وتفقد العضلات الساحرة مرونتها ، ويتحول الجلد المخملي إلى حراشف قرنية وتنتهي عند هذا الصندوق أسرار كثيرة من حياته العنيفة تاركة لحظات عمره مترعة بالأسى والحسرة .. ومع كلّ خطوة بطيئة يخطوها .. يبكي دماً أحلامه الضائعة .. المسلوبة والمستحيلة .. وإنّه الآن .. كرسيها ذو العجلات هذا ..

به تغدو كالفهد في إهاب الغيلم .. تدعوه قبرها المتحرك ... أو مثواها الأخير يحتضنها نصف حية أو شبه ميتة ... يحتويها هامدة خامدة وكأنها تتلاشى .. تهبط في مستوياتها النفسية من سيء إلى أسوأ ومن منخفض إلى أخفض .... تتقاذفها خواطرها المبتورة وأفكارها المقتضبة .. جوفاء ... ضعيفة المحتوى ..

لقد صار الخواء يملؤها حتى التخمة ، ويفيض من جوانب نفسها الفراغ والضحالة واللاشيء .. لقد صار للزمن الجديد خصوصيته الجافة ، ولم يعد هجير الأيام يندى بطراوة الفرح أو الأمل .. لم يعد لديها ما تفعل .. لم يعد لديها ما تبدع .. لم يعد لديها ما يهم ..

لا شيء ... غير هذه المرآة التي طالما وضعتها غير مرة أمام حقيقتها المريرة .. لتشهد مرور الزمن .. ولتجعل من المقارنة بين ما كانت عليه وبين ما آلت اليه جرس إنذار ينذر بالخطر ، فالعمر يمضي مسرعاً .. ولا يأبه لتوقفها .. إنّها تدرك تماماً أنّ عجزها نفسيٌّ بحت ، وأن لا عائق عضوي يمنعها من استرداد ساقيها ، وأنّ استسلامها الكامل لهذه المحنة العصيبة ، جعل منها مشلولة لا قيمة لها .. وسلب منها كثيراً .. كثيراً من الأشياء التي تحبّ .. وتركها مجرد بقايا إنسان .. تتنفس .. وتتحرك ضمن كرسي ذي عجلات ..

ومرآتها ..... مرآتها هي الصديقة التي تذكرها دائماً بمرور أيام العمر ، وترسم لها دائماً إشارة استفهام كبيرة ، تحرّض لديها شيئاً من الرغبة في العودة إلى الحياة .. وتحضّها على استعادة قواها والانفجار مثل بركان طال خموده ..

مرآتها ..... هذه النافذة الساحرة التي تطلّ منها على أمجاد ماضيها فتشحذ عزمها الواهن لصنع مجد للحاضر .. ومجد للغد ..

إلا أنّ آلاف المرايا لا تنفع مع الظلمة شيئاً .. إلا مرآة الروح التي تستقطب النور الخالد في صميم الذات ..

تلمست مرآتها بحزن ... أرادت أن تستجديها " ماذا أفعل ؟؟ " ...

إنّ هذا الكرسي الفظيع ، يجذبها إليه كما يجذب المغناطيس الهائل قطعة معدن صغيرة .. يفقدها الإرادة والاختيار .. ويصادر حقها في صنع القرار .. لقد استهلك ببرودة معدنه .. وقبح منظره وشراسة احتوائه .. زهرة شبابها ونضارة أيامها .. وكم حاولت الانفكاك من أسره .... لكنّ سطوته أقوى من ضعفها وقدرته أدهى من قلة حيلتها .... وفي كل مرة كانت تبوء المحاولات بالفشل ..

وحين اشتدت الحلكة في لياليها ، وتكاثفت الظلمات من حولها ولم تعد ترى أملاً لها في النجاة .. تذكرت ذلك الحلم الذي رأته في منامها منذ بضع سنين ( حيث فقدت بصرها تماماً فترة قصيرة من الزمن وأحست بما ينتاب العميان من أحاسيس ومعاناة فأشفقت منه .. وارتعدت فرائصها هلعاً ورجاءً ألا تطول فترة العمى .. حتى عاد النور إلى عينيها وعادت ترى من جديد ) .. ترى ..؟ هل كان هذا الحلم نبوءة سيئة لما سيقع لها ، وإشارة إلى كارثة ستلمّ بها ذات يوم .؟ وهل كانت المدة المظلمة عشر دقائق أو عشراً من السنين .؟ وهل آن أوان الإبصار والتبصر وإعمال البصيرة.....؟؟

وظنت .. وخامرها الشعور بأنها بحاجة إلى النور .. كيدٍ قويةٍ تشدها في الاتجاه المعاكس .... وتنتزعها انتزاعا .. تساعدها في الخلاص إلى الأبد وتكون لها سنداً في خطواتها الأولى ..

وبدأت تشعر .. أو هكذا أرادت أن تشعر .. بأن أطياف النور الجميل تتراقص خلف رأسها .. وتترك في المكان وهجاً شديداً .. يخطف الأبصار والألباب .. تستفزها دون أن تراها .. تدفعها بمكرٍ طيبٍ حنون لترتطم بجدار الحقيقة ، علّها تنتبه من غفلتها .. وتتجاذب أطراف ردائها بذكاء ، لتوقعها في وهم العري .. فالحياء .

وببداهةٍ ... أدركت أن لا متاهات مع النور .. ولا ضياع ، وإلا فسيظل الكرسي ذو العجلات قدرها حتى يشاء الله لها غير ذلك.

# أسطورة القلب المغامر

.....كان يشهد نزاعات البشر ويسمع بخلافاتهم ..

يرى كيف تتحول القلوب الآدمية إلى حجارةٍ من صوّان ، فيظلم بعضهم بعضاً .. ويؤذي الأقوى الأضعف .. ويحكمهم رغم تواجد العقول التي تميزهم عن الحيوانات قانون الغاب في صراع البقاء ..

وعندما أراد لوجه الأرض أن يتطهر ..

تخيل نفسه قلباً مفعماً بالحب منزّهاً عن الظّلم يحتضن عدله أطراف الكون بكائناته .. يحترم الجمال ويرحم القبح .. يعطي دون حساب وبغير مقابل .. ويؤثر الآخرين عن نفسه .

.....كان يقرأ الجوع في النفوس والظمأ في الأرواح ..

يعايش بؤس الأيدي القصيرة حين تنال رغائبها ... وضعف الحواس حين توصل أصحابها بعالمهم الخارجي على خير وجه وكما ينبغي ..

وعندما أراد أن يجد لهم حلاً ، ولكونه يوقن بأنّ القمح أهمّ أغذية الانسان .. تخيّل نفسه سنبلة قمح .. ينفرط حبّها في أرض كثيرة الخصب ما إن تتلقاها التربة حتى تنبت حقولاً مترامية الأطراف ذهبية الوميض جزيلة العطاء .. تهب لكل عين أملاً سحرياً بالخير الوفير ، ولكل يد منحة كريمة .. وثروة واعدة .

.....كان يرى في دبيب الكسل والتهاون حجر عثرةٍ أمام المطامح العظيمة .. وفي الضعف والخور داءً يستنزف الطاقات الخلاقة .. وفي الأنس بالسفوح والركون إلى الوديان فقداً لكثير من أنواع الجمال ، وأدرك أنّ القمم تقدّم له فرصة رؤية أكبر مساحة ممكنة من الأرض ، وتطلعه على جوانب أوسع من معالم الطبيعة ..

وعندما أراد أن يصل إلى القمم ..

تخيّل نفسه نسراً عظيم الجناح .. يحلق في أعالي السماء ويدنو من شاهقات الجبال .. ويظلّ يتقلب في أشعة الشمس ليصوغ في ريشه ألقاً ذهبياً ساحراً .. وليجمع في دائرة بصره كمّاً متميزاً من المشاهد الغنية وليضم في صدره أنقى وأصفى ما يحيط بالأرض من الهواء .

.....كان يدرك تماماً أنّ الملل هو المسمار الأول في نعش الحضارة .. وأنّ النفس البشرية مجبولة على كثير من السأم والتقلب .. وأنّها بحاجة إلى الكثير من المغريات لتواصل المسير ..

وعندما أراد أن يكون للحياة نكهتها المتجددة ، دائمة التجدد ..

تخيّل نفسه غابة رائعة الوجود .. لا متناهية الحدود .. لا تنتهي غرائبها ولا عجائبها .. ولا تنقضي حوادثها ولا مفاجآتها تضم في أرجائها الرحبة من النباتات والطيور والحيوانات ومن الأشكال والأصوات والطعوم .. وفوق كلّ

ورقة .. وتحت كلّ غصن .. ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

.....كان يرى أن النهاية المحتومة لكلّ حي، تحثّ الخطا إليه مسرعة لتسلب عمره .. وتمحو أثره .... وكان يرى فوق صدر الأرض آثاراً وأشياء عمرها آلاف آلاف السنين ، تربض جاثمة غير مبالية بمرور الزمن ..

وعندما أراد لنفسه نوعاً من الخلود ..

تخيّل نفسه قلعة هائلة حصينة .. تضمّ فوق كلّ حجر فيها ، تراثاً عظيماً لكلّ ما أبدعته يدٌ ، واكتشفه عقلٌ ، وأحاط به إدراكٌ .. من العلوم والمعارف والفنون .. منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا .. ولما أراد أن يذيّل آخر رقعة حجرية بختم ... أو اسم ... أو لقب ..... راح يحفر عليها بإسفينه الصغير كلمتين ليس إلا ....." القلب المغامر " .....

لقد أراد أن يكون كلّ ذلك .. بل وأكثر من ذلك ... فإلى حيث تأخذه الفكرة .. ينشر أشرعته ... ويبحر مع خواطره وأفكاره ملبّياً نداءها ورافعاً لواءها .. وإلى حيث يستصرخه الحلم ... يفتح نافذة الخيال ويدخل عبرها إلى دنيا الرغائب والطموح مستدعياً فرسان الاهتمام وجند المحبة .. وإلى حيث تغريه المغامرة ... يحمل روح الجرأة ويبدأ أسفاره الطويلة الى مدن الغربة والشوق والمغامرات .

# الجزاء

وقفت الأمّ مذهولة .. دهشة .. تنظر إلى الباب الذي صفعته ابنتها صفعاً وهي خارجة من المنزل .. وطال وقوفها ودويّ صفع الباب يتردد في نفسها مع صدى الكلمات الأخيرة " أريد أن أذهب ولن تمنعيني " ..

لقد أرادت أن تمنع ابنتها الوحيدة من الذهاب إلى سهرة عيد ميلاد زميلتها في الجامعة ، بعد أن علمت أنّ السهرة ستطول حتى الثانية بعد منتصف الليل .. إلا أنّ تصرف الإبنة كان الفصل في النقاش الذي علا واحتد بينهما ، وتحدّرت دمعتان باردتان فوق وجه جامد فقد ملامحه .. وران سكونٌ مطبقٌ على كلّ شيء حولها ، فارتمت فوق أقرب كرسي لها قبل أن تخونها قواها ، وتسمّرت كتمثال من الشمع دون حراك .. لقد أرادت أن تثور وأن تصرخ وأن تجهش بالبكاء .. لكن أعصابها كانت هادئة جامدة حيال تصرف ابنتها .. فهي ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة .. لقد أدمنت على هذا السلوك واعتادته منذ أن فقدت زمام الأمور .. منذ متى .؟؟ هي لا تذكر بالضبط ، فمنذ مدة طويلة .. شقت ابنتها عصا الطاعة ولم تعد تأخذ بنصحها ولا توجيهها .. منذ زمن بعيد لم تعد تحترمها أو تأبه لأوامرها منذ متى ؟ ولماذا ؟ وما الذي جعل وحيدتها تشب بعيداً عن طوق الاحترام والتفاهم ؟ وما الذي

نأى بها عن أن تكون بارّة طيّعة ودودة .؟ ما الذي أضعف سلطتها عليها .؟ وما الذي أفسد تربيتها .؟ ليجعل من تمرّدها الثائر ناراً تلسع كلّ ما يخالف هواها .. وتزاحمت التساؤلات والأفكار .. واختلطت في الرأس المثقل فوق مسند الكرسي .. بينما راحت الأم تطوف بعينيها في أركان المنزل الساكن .. لتتحسس في أشيائه نبض الحياة الخافت المحتضر في داخلها وتوقفت للحظات أمام صورة المرحوم زوجها وكأنّها تخبره عمّا آل إليه حالها وحال ابنتهما ..

لكنها في استغراقها الصامت هذا .. اصطدمت نظراتها الجامدة بالصورة المجاورة لصورة زوجها .. فارتدت عنها وكأنّها مسّت تيار كهرباء وانتفضت .. إنّها صورة والدة زوجها – رحمها الله – وارتعدت بقشعريرة قوية .. أعادت إليها صوابها المفقود وأيقظت فيها غفلة السنين الطويلة .. آه نعم .. وانفجرت باكية نعم إني أستحقّ أكثر من هذا .. فأنا التي علمت ابنتي الجحود وربّيتها على قلة الاحترام .. أنا التي أرضعتها لبن نكران الجميل .. نعم .. إني أستحق أكثر من هذا ... كنت أهزأ بأمِّ زوجي على مسمع ومرآى من ابنتي .. بل كنت ألزمها بتنفيذ ما يخالف نصائحها ورغباتها حتى لا يكون لها مثقال حبة من السيطرة علينا بعد وفاة زوجي ..... آه .... لقد علمتها التمرّد على جدّتها .. فتمرّدت عليّ .. وربيتها على عصيان أوامرها فمارست العقوق معي .....وإنّه الجزاء .....

.....إنّه الجزاء .

# في الضمير

في غرفة الإجتماعات .... في مقرّ الشركة التي كنت أعمل فيها وقف المدير وكبار الموظفين يصغون للكلمة الخطابية التي يلقيها رئيس الشؤون الإدارية في الحفلة الوداعية التي أقيمت تكريماً لي ولجهودي وذلك بمناسبة انتهاء سنيّ خدمتي وإحالتي على التقاعد ..

كانت كلمات الثناء والتكريم تتزاحم في السطور ، وتتعالى عبر صوته المتهدّج لتثير في أعماقي نشوة الاعتزاز .. وسرور الفخر ، وكنت أطوف بناظري على كل الوجوه الباسمة .. لأبادلها ابتسام العرفان .. ثمّ يحفزني التواضع إلى خفض رأسي شاكراً ممتناً ..

ولبثت ساكناً جذلان .. وعرض أعمالي العديدة وإنجازاتي المتفوقة على مرآى ومسمع الجميع .. وغرقت في سِنة الأمجاد مزهواً .. تيّاهاً .. ناسياً .. فإذا بالكلمة .. الصفعة تلطمني وتوقظني .. إنّه أيّها السادة مثال يحتذى ... إنّه من الرجال الشرفاء ... وأفقت مذعوراً خائفاً .. وقد ارتطمت بجدار حقيقة مُرّة .. خبأتها طويلاً بين أضلاعي وجمدت في مكاني .. وكأنني خشيت إن تحركت أن يهتك ستر دفينتي ذو فراسة .. أو أن يستشف غوري صاحب نظر ثاقب ..

رجلٌ شريفٌ .. ودارت الكلمة في رأسي مدوّية صارخة .. إنّه شريف .. رجل شريف .. وتعالى الصدى في داخلي يصرخ باكياً .. منتحباً .. "وهل يسرق الشريف ؟ هل يسرق الشريف ؟ " .. وسالت دموعي فوق وجه تجمدت ملامحه وانطفأ بريقه .. بينما اشتد تصفيق الحاضرين تجاوباً مع دموع حسبوها دموع الفرح .. وقُدمتْ لي مكافأة نهاية الخدمة .. فاستلمتها بوهنٍ شديدٍ كان في ظاهره هيبة الوداع ، وجلال الموقف .. في حين أنني كنت أحس به أصفاد جريمتي وذنبي وهوان ما اقترفت يدي .. نعم لقد فعلتها .. صحيح أني لم أسرق طمعاً في الحرام ولا رغبة في الشر .. صحيح أني لم أسرق لكي أثرى أو أكنز .. بل لأسدّ رمقاً ولأسكن هائجة .. وهي مرات قلائل .. في بداية عملي اعتصرتني الحاجة الشديدة وأضعفت ضميري الفاقة المدقعة وأنشبت أظافرها في عنقي مرارة الحياة .. وقد كنت أكره فعلتي وأحتقر نفسي في كل مرة .. ومع ذلك فعلتها ... فعلتها بكلّ بشاعتها .. وبكلّ وضاعتها .. نعم أنا الشريف .. هكذا يحسبونني ، وهكذا يصفونني .. أنا الشريف فعلتها ولما لم يكتشف أمرها .. طوتها الأيام في كرّها المتوالي .. فإن تذكرتُها امتلأتُ ندماً وحسرة .. وعاودت إلى توبيخ ذاتي وتأنيب ضميري ، وإن نسيتُها قرّت عيني بنظافة مسلكي وبالتزامي جادة الصواب ..

وها هي اليوم ..... ومع ضجيج المديح الرائع .. تطلّ برأسها في سخريةٍ مُرّةٍ لتذكرني بحقيقة أمانتي المبتورة ... وشرفي المشوّه .

# نبوءة أبي عمار

لست أدري .. كيف امتلكت أعصابي .. فلم أنفجر ضاحكاً كما كان يفعل كلّ المارّين في الشارع .. ولست أدري كيف تمالكت نفسي فلم أحاول تحاشي ذلك الرجل حين اقترب مني نصف زائغ .. كان ينظر إليّ وعلى ملامح وجهه الغريبة تترى التعابير الكثيرة كسيلٍ متدفق عارم ...

كانت ملامحه ترجوني ألا أفرّ منه كما يفعل الآخرون .. أما أنا فقد اعتراني شعورٌ خاطفٌ بأنّه قد اطمأنّ إلى هدوئي .. فراحت عيناه الزائغتان .. تفيضان بأملٍ دامعٍ أن أتأمله بتفهم .. دون جرح إنسانيته المعذبة ...

ولم تطلْ حيرتي في اختيار الطريقة التي أمدّ بها يد العون إليه فقد فاجأني بسؤال مباشر موجز ..

هل تسمعني يا سيدي ؟؟ وكان عليّ أن أوازن بسرعةٍ بين إتمام المهمة التي كنت بصددها أو تأجيلها .. ووجدت أن لا ضير من القيام بها في الغد .. ورفعت يد الموافقة لأضعها فوق كتفه المحنية قائلاً :

– بالقرب من هنا حديقة صغيرة .. تعال نجلس فيها .

ومضيت به ... أو لعلّه مضى بي .. فقد قررت أن أجعله سيد الموقف .. مشيت إلى جواره صامتاً ساكناً .. أترقب فعله التالي ، وطال طريقنا رغم قصر المسافة ، وقد خيّم السكون علينا .. حتى خيّل إليّ أنّه قد نسي طلبه أو أنّه لم

يكن يعنيه أصلاً .. وبدأ الإحساس بالندم يراودني إذ طاوعتُ رجلاً يتيه على غير هدى ، وطافت على سطح نفسي مرارة الخيبة حين رأيته يتركني لامبالياً ليسرع إلى أقرب مقعد فيتقوقع فوقه مشيحاً بوجهه عني ، وشعرت بالحاجة إلى شجاعةٍ كافيةٍ لأتقدّم باتجاهه ... ورحت أحسب من ردود فعله ما قد يضعني في موقف حرج أمام الناس ، وغالبت في داخلي رغبة الانسحاب قبل التورط فيما لا تحمد عقباه ، إلا أن صدى كلمته الجريحة ( أتسمعني يا سيدي ) كان يشحنني بقوة عجيبة تدفعني إليه دفعاً ..

وبخطىً ثقيلةٍ جداً .. وحذرةٍ جداً .. تابعت سيري ثمّ اتخذت إلى جواره جلسة متحفزة .. وقد أطرقت دون تفكير بانتظار ما سيكون .. ولبث الرجل برهة قصيرة .. لم أشأ خلالها حتى أن أرفع إليه ناظري فأستعجله .. أو أحثه .. كنت أحاول أن أتشبع بسكينة روحية .. وأنا أراه يختلج ثمّ يسكن .. ثمّ يختلج .. ثمّ وبدون مقدمات قال ذاهلاً :

– حين اهتزّ مبنى الشركة اهتزازاً ضعيفاً ..... تهامس الموظفون يا لطيف .. ماهذا .. الطف يارب .. في تلك اللحظة في تلك اللحظة ياسيد تراءت لي صور خاطفة مرعبة .. إن البناء الذي أقطن في شقة منه يتهاوى .. وكان غير بعيدٍ عن مقر عملي .. وقفت مذعوراً مرتبكاً ثم جلست وأنا أحاول أن أبعد طيف هذه الصورة البشعة .. أي خاطر غريب هذا ؟ الصورة تلح وتلح .. خيّل إليّ أني أسمع أصوات استغاثة ولدي بل أظنني قد سمعتها فعلاً ..

فانطلقت دون وعي وأنا أصرخ .. أهلي .. أمي .. تصوّر يا سيد .. صار زملائي يتمسكون بي ويمنعونني ( اهدأ .. اهدأ .. لم نتبين حقيقة الأمر ) .. وسكت الرجل الغريب .. سكت للحظاتٍ ثم ابتسم ابتسامة مرة " البارحة فقط وصلت أمي من السفر .. كانت عند أخي .. وقد دعوتها مراراً لزيارتي .. إنّ ابني عمار يحبّها " وانحدرت من عينيه الدموع " عفواً .. كان يحبّها .. إنّه الآن معها في السماء وكذلك زوجتي كانت امرأة طيبة .. واليوم لم يعدْ لدي أي منهم .. عمار ابني في كل ليلة يناديني كي أذهب إليهم في منزلهم الجديد وأنا سأذهب إليهم .. يجب أن أذهب إليهم .. أليس كذلك أيّها السيد ؟ ولكن .. دلّني كيف أذهب ... دلّني .. ؟؟ أرجوك ألست أسألك ؟ أولست تسمعني ..؟

وأطرق الرجل .. وأنا لا أكاد أجمع شتات نفسي .. وقد عجزت أن أواسي مصابه وهو الذاهل عنه .. كما عجزت أن أقتحم عالمه المحصن بهذه الغيبوبة المصطنعة .. وعقدت حكمة الصمت لساني ، ونظرت إليه في حياء العاجز عن تقديم عون .. إلا أنّه رفع ناظريه إليّ .. وتأملني .. ثمّ باغتني قائلا:

– عدني أن تسمي ابنك القادم عمار على اسم ابني .. عدني وقل لزوجتك اليوم إنك اخترت اسم عمار.

.... وابتعد الصوت .... وغاب الرجل بين الناس دون استئذان وعدت إلى زوجتي .. وأنا أحمل لها قصة غريبة حصلت معي فإذا بها تلقاني ضاحكة وهي

تزف إلي بشرى خبر سعيد لطالما حلمنا به سوية منذ بضع سنين حتى كدنا نيأس منه ومن تحقيقه .." أنا حامل يا أبا ..." .. وقبل أن تنطقها قلت لها :
– أبو عمار .

# المسكن الأخير

على غير العادة في حيّنا الهادىء الجميل .. استيقظت ذات صباح على أصوات ضجيج وجلبة .. كانت تنبعث من تلك الدار القديمة .. إنّها تقابل دارنا وتحتلّ موقعاً جميلاً على زاوية شارعين ...

لقد حطّ الرحال بها أخيراً مالكها الجديد ، وكان قد اشتراها منذ عام ونيف إلا أنّه تركها وعاد إلى بلاد المهجر لينهي التزامات أعماله وليعود بحصيلة سني الجهد والسفر ...

واليوم .. يباكر الرجل إلى داره الجديدة ، ويرافقه عدد كبير من العمال ، يتوازعون القيام بما يروم إنجازه من أعمال الترميم .. أو التعديل أو الإضافة ... وأصبح هذا الموقع على مدى أكثر من شهر خلية نحل بأكملها .. هنا تنظف الواجهات بآلات تثير الضجة والغبار .. وهناك تبنى مساحات من الحجر الأصفر في السور ، ثم تحدّد بإفريز أبيض محدب يظهر رشاقة الأعمدة التي تعلوها المصابيح الكبيرة وتستقر فيما بينها قضبان من الحديد المشغول تزركشه النجوم النحاسية اللامعة وقد استبدلت بوابة الحديقة الصدئة بأخرى تناسب جمال السور وتضاهيه أناقة بتفاصيلها وسهولة حركتها ... كان كل شيء في الدار القديمة يتجدد إلى أبهى وأحدث صورة ..... حتى برك الماء وحوض

السباحة فقد كسيت مسطحاته بالسيراميك الجذاب وجعلت نوافيره المنحوتة من الحجر على هيئات فنية مختلفة ...

أما نوافذ المنزل ... فعلى كثرتها .. فقد تحوّلت من النوع الخشبي العادي إلى نوافذ من الألمنيوم السحّاب تحيط بزجاج دخاني تتقدّمها الستائر البلاستيكية اللامعة ...

أما الأدراج المؤدية إلى المبنى .. فقد كسيت بحلّةٍ مرمريةٍ بيضاء تزخرف سواترها خطوط سوداء رشيقة ...

وفي ركن من أركان الحديقة الكبيرة .. وتحت ظلّ شجرة باسقة معمرة .. انتصبت مقصورة واسعة من الخشب المتضافر .. تتخللها أحواض الزهور المتنوعة .. والتي انتشرت مثيلاتها في كل الأرجاء المحيطة بالبناء ، تتلوّى فيما بينها ممرات رصفت بأحجار فسيفسائية الأشكال ...

كان العمل داخل المنزل يتماشى مع وتيرة العمل خارجه ولا يقلّ عنه روعة واهتماماً .. وهاهي نفايات ورق الجدران .. وبقايا اكساءات الجدران القديمة تلقى جانباً .. وهاهي الثريات والستائر، والأثاث الجديد ... تتهادى تباعاً لتحل في أماكنها المختارة بعد أن تم جلي البلاط وتهيئة الغرف والقاعات لاستقبالها .. حتى جهاز المطبخ بكامله تمّ تبديله وفق أحدث الطرز المتوفرة .. ولم تطل فترة التجهيز .... إذ كرست الجهود العظيمة لقاء أجر مضاعف وتسهيلات كثيرة قدّمها الرجل خلال فترة إشرافه على العمل .. لقد أراد

لمسكنه الأخير هذا أن يكون قمة في الذوق والراحة .. كما أراد أن تسكن أسرته في اليوم السابق لأول يوم من أيام العام الدراسي حتى يتمكن ابنه الطالب في الثانوية العامة من مباشرة الدراسة في مدرسته القريبة ...

وانتهى كل شيء على أكمل وجه .. قبيل الموعد المحدد بيوم واحد ... وكانت آخر لمسة فنية أضيفت إلى هذا الصرح المتناسق البديع لوحة مرمرية ... وضعت فوق البوابة الكبيرة بعناية فائقة .... ينطق خطها الكوفي الأنيق بأجمل الكلمات على الإطلاق .. ألا وهي الآية القرآنية الكريمة التي تقول :

" ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوّة إلا بالله " ..... وما هي إلا ساعات قلائل .. حتى وصلت العائلة في سيارتها الفخمة لتقيم في مسكنها الجديد .. وهي ترفل في أثواب الرغد والرفاهية والدعة .. وجاءت صبيحة اليوم التالي لتحمل في طياتها نبأ أحار العقول وأدهش الألسن ... لقد توفي صاحب الدار قبيل مطلع الفجر .. وبدأت مراسيم الجنازة ... وتوافد الناس من كل حدب و صوب ... صامتين ذاهلين ..... كأنّ على رؤوسهم الطير ...

وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم ..... أُبلغ الرجل إلى مثواه الأخير.

# الليرة الأولى

كانت هدية غريبة حقاً .. تلك التي استلمتها من والد زوجي يوم وضعت حفيده الأول ... حيث زارنا في المساء وفي يده علبة كرتونية مغلفة بورقٍ ملونٍ جميل .. ورحت أخمّن بخيالي محتواها نسبة إلى ما يهدى عادة في مناسبات كهذه من ملابس أو حاجيات للمولود أو .... إلا أن الهدية كانت بعيدة عن كلّ تصوّر وضعته لها وقد أدهشتني بساطتها بقدر ما أدهشني مغزاها .... كانت الهدية حصالة للنقود ، على هيئة صندوق حديدي مطليّ باللون الأزرق ، وله باب مزود بمفتاح ذي أرقام سرية ... وعلى أحد جوانب الحصالة حفرت حروف وأرقام تسجل تاريخ الولادة وإلى جانبه عبارة " ذكرى الليرة الأولى "..

وفعلاً ... كان في الصندوق يومذاك ليرة واحدة .....

وابتسم الجدّ ابتسامته الحنونة الطيبة وهو يقدمها لي قائلا :

– لك أن تدخري له فيها كلّ ما يفيض عن حاجتك .. وعندما يصير حفيدنا طفلاً صغيراً علميه كيف يدّخر بعض نقوده .. بدلاً من إنفاقها في مستهلاكات لا تسمن ولا تشبع .

وراقت لي الفكرة كثيراً .. وجدت فيها تقويماً لاعوجاجٍ كنت أشهده في تربية جاراتي لأولادها .. الذين اعتادوا يومياً أن يبذروا ما يكفي لإعالة عدة أشخاص ..

وبدأت رحلة الادخار منذ اليوم الأول في حياة طفلي .. ورحت أضع كل مبلغ نقدي يقدّم له كهدية إلى جانب ما يزيد عن مصروفنا الشهري مهما بلغت ضآلته ..

وتجاوز طفلي الرابعة من العمر ..... وبدأ يطالبني بشراء الحلوى والمثلجات اقتداءً بأقرانه من أولاد الجيران وبمن هم أكبر سنّاً منه ، وكان دوري حسّاساً في الموازنة بين العطاء حيناً والمنع حيناً آخر ، خوفاً عليه من مظنّة الإفساد أو من الشعور بالحرمان ..

وكانت مهمتي عسيرة أول الأمر ، لكن الصبر عليه آتى ثماره أخيراً وانتهى بي الحال إلى أن أعطيه المال ثمّ أحثّه على ادّخار القسم الأوفى منه .... مزيّنة له الاحتفاظ به لأمر أكثر أهمية .. كشراء ملابس جديدة للعيد .. أو لعب أخرى يضيفها إلى مجموعته .. أو هديّة حلوة يقدّمها إلى قريب أو صديق عزيز .. وهكذا .. فقد سلّمته هدية جدّه له يوم ولادته .. ليقوم بدوره في الادّخار فيها ..

وكانت كلّ سنة تمضي .. تضيف إلى رصيد الحصالة مبلغاً جيداً من المال .... وقد أمكننا مجمله من شراء أكثر من قطعة ذهبية .. ثم تنامت المدخرات شيئاً

فشيئاً ... وقام زوجي بشراء أسهم وحصص ، باسم ابننا في عدة دور سكنية ومحلات تجارية ، ثم قام ببيعها عند ارتفاع ثمنها ..... وهكذا ..

..... وغدا ابننا رجلاً ..... رجلاً من رجال الأعمال ... إلا أنّه ما زال يحتفظ بهدية جدّه – رحمه الله – والتي تذكره دائماً بذكرى الليرة الأولى.

# امرأة مختلفة

كانت إحداهن تلبس صدرية كحلية اللون .. قصيرة .. فوق جراب أبيض طويل .. قد وضعت حول رقبتها ياقة بيضاء ، وضفرت شعرها ضفيرتين ثمّ زينت كلّ واحدة منها بشريطة بيضاء ..

أمّا الثانية ... فقد ارتدت رداء أحمر ياباني الزي ( روب دي شامبر ) وأحاطت خصرها بحزام عريض لماع ... وعقصت شعرها على شكل دائرتين كبيرتين ، ووضعت في كلّ دائرة قلماً خشبياً .. وكحلت عينيها بشكلٍ مائلٍ إلى الأعلى ..

الثالثة ... اختارت لنفسها زياً بدوياً مزركشاً بما فيه غطاء الرأس المحلى بسلسلة من الليرات الذهبية ووضعت على ذقنها نقطاً زرقاء على شكل مثلث قاعدته في نهاية الذقن ورأسه تحت شفتها السفلى ، وعلى طرف أنفها ثبتت حلقاً دائرياً صغيراً ..

الرابعة ... كان اختيارها لباس أميرة فرعونية ..

الخامسة ... اختارت لباس آنسة أرستقراطية من العصور الوسطى الأوربية .. قد حملت في إحدى يديها المغطاتين بقفازين من الحرير الشفاف المقصب مروحة من الريش الأبيض الناعم ووضعت على رأسها قبعة مزينة بالزهور والشرائط الملونة ..

السادسة ... ارتدت زي امرأة عجوز محنية الظهر .. تمشي على عكاز .. ذات شعر أبيض مستعار ونظارة سميكة ..

أمّا السابعة ... فإنها لميس .. وقد كانت صاحبة المنزل الذي أقيمت فيه هذه الحفلة التنكرية الخاصة ، وقد أردْنها أن تكون ذكرى جميلة يختتمن بها أيّام الدراسة والتعب بعد أن حصلن جميعهن على شهادات التخرج من الجامعة .. لميس .. اختارت زيّاً مختلفاً عن الباقيات .. لقد رفعت شعرها الطويل فوق رأسها لتخفيه تحت طربوش أحمر وارتدت سروالاً عريضاً أسود وقميصاً من الصاية البيضاء المقلمة وحزمت خصرها بشالٍ عجمي ملوّن .. وأمّا شارباها المستعاران فقد وضعتهما من بن قهوة كثيفة ..

كانت كلّ واحدة منهن تقوم بما يناسب شكلها من حركات وتتصرف بما يليق بزيها الخاص بها .. وساد جو من المرح والبهجة والمجاملات المنوعة بين أفراد هذا الحفل الصغير .. ثم تعالت ضحكات الصديقات عندما مثلت الأخيرة دور خاطب لإحدى الآنسات اللواتي تجمعن حوله متوددات ، وكان بدوره يغازل هذه .. ويطري جمال تلك .. ويدعو أخرى للرقص معه على أنغام الموسيقى ..

وكانت أمسية مرحة جداً .. تناولن فيها ما لذّ وطاب من المأكولات والمشروبات مسبقة التحضير .. ثمّ عادت كلّ واحدة منهنّ إلى شكلها الاعتياديّ .. وفي نهاية السهرة تبادلت الرفيقات التحيّات و السّلام وتواعدن على استمرار اللقاءات والزيارات ..

وما إن خلا المنزل من ضيوفه حتى سارعت لميس إلى تنظيفه وإعادة ترتيبه كما كان ثم استلقت فوق سريرها متعبة ، منهكة القوى بعد يوم حافل .. وأغمضت عينيها .. لكنّ النوم لم يجد إليهن سبيلاً ... راحت تستعرض أحداث نهارها المزدحم هذا .. فتبتسم لمفاجآته .. وتضحك لمفارقاته .. وتنتقل بين تفاصيله الصغيرة .. والكبيرة ..

وغاص بها التفكير إلى العمق أكثر ..

جلست على سريرها جلسة تربيع ، ونظرت إلى الطربوش والسروال الموجودين على الكرسي أمامها .. وتساءلت في نفسها هل اختلاف زيها عن أزياء الصديقات كان من باب المصادفة البحتة ..؟ وهل كان اختيارها له اختياراً واعياً .. أم لا شعوريًا ؟ هل أرادت مجرّد التميّز ؟؟ أم أنّها تعرض عن اتخاذ أزياء النساء ؟..

إنّها فعلا تكره الثرثرات النسائية الفارغة .. التي لا تضمّ إلا حديثاً عن هذه فعلت كذا ، وتلك عملت كذا .. أو عن شؤون الزوجات .. في مواضيع الحمل ومشاكله .. والولادات وقصصها .. أو عن حسناء خطبت ... ولمياء طلقت .. وهيفاء أنجبت ....

كانت لا تجد في كلّ ذلك ما يغني عقلها النّهم إلى العلم .. وروحها المتطلعة إلى المعرفة .. لم يكن في داخلها ميل النساء إلى الدّعة والخمول .. ولا حبّهن للّهو والتسالي .. لم يكن في طبعها الغمز واللمز على هذه وتلك .. ولا في تكوينها الاكتفاء بالأمور السطحية .. في قضايا الحياة من مأكل أو مشرب

أو ملبس .. لم تكن تتابع صرعات الموضة وخطوطها .. لا في زينتها ولا في لباسها .. ولا في سلوكها ..

كانت تفضل لنفسها أن تتميّز شخصية ناضجة ، وفكراً مثقفاً ، وحضوراً واعياً ... وربما كانت الوحيدة بين رفيقاتها التي اختارت من فروع الجامعة ما يناسب ميولها لا ما يوافق مجموع علاماتها ..

كانت تفضل الجلوس إلى أخيها ، ومناقشته في مستجدات الأيام ، وفي أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع .. بدل أن تذهب مع والدتها إلى حفل زفافٍ ما .. أو دعوة استقبالٍ لمناسبةٍ ما ..

كانت تنسى أحياناً أنّها فتاة يستدعيها الصبا أن تتجمل وتتزين للخاطبات لتلفت نظرهن .. أو ربما كانت تتجاهل عوالم أنوثتها أحياناً أو غالباً لما تغص به من أسباب الكف والمنع في مجتمعها ..

وطارت الأفكار بها هنا .. وهناك .. حتى غلبها سلطان النوم فنامت ..

في صبيحة اليوم التالي ....

استيقظتْ متأخرة على صوت جرس الهاتف .... رفعت سماعة الجهاز الموجود في غرفتها ، فإذا بوالدتها تتحدث مع صوت نسائي غريب يطلب منها موعداً للزيارة .... قال الصوت :

– أرجو أن تكون لميس موجودة لأننا نريد رؤيتها ..

قالت الأم:

– إن شاء الله ... أهلاً بكم ... أهلاً وسهلاً..

أدركت لميس أنّها منذ الآن ستواجه واقعاً مفروضاً .. كانت تتهرب من مواجهته بحجة إتمام الدراسة .. وهاهي قد تخرّجت وآن الأوان كي تباشر حياة الاستقرار .. والأسرة الصغيرة المستقلة .. بكلّ ما ادخرته في ذاتها من عوامل المثالية والاكتمال .. وبكلّ ما تمنته لحياتها من سعادة وانسجام ..

كانت تجهل أن الزواج أحياناً مصيدة للمرأة المتميزة ، فإن وقعت في شراكها كان حتماً عليها أن تتخلى عن كلّ مقومات تميّزها .. لتصير في ركب الأخريات ..

كانت تجهل أنّ الزواج قفص حديدي ... يطلى بالذهب تمويهاً ليخطف بريقه عيون المرأة الحرة ، فإن دخلت إلى القفص ، كان حتماً عليها أن تتنازل عن حريتها لتضاف إلى رتل الجواري ..

..... وتم النصيب .....

وما استطاع تميزها ولا استقلال شخصيتها .. أن يكفلا لها أمنها المستتب ..

وعاشت صراعها المرير في مواجهة تسلط وتعسف رجلها الذي ما كان يحلو له إلا أن تلغي ذاتها تماماً .. وأن تذوب في جوه ومحيطه ذوباناً غير مشروط .. وأن تكون صدى ، مجرد صدى لكينونته الأعلى دون حساب ..

وظلّ عذابها رهن تكوينها المختلف ، فلا هي قادرة على أن تكون سلبية وسطحية شأن معظم النساء .. ولا هي قادرة على أن تكون ذاتها المختلفة بما تتطلبه وتفرضه من تحقيق وإحقاق ..

راحت تبحث عن ملاذٍ آمنٍ لروحها المكبلة التي تجر أصفاد عمرٍ هارب يتغلغل في كينونة حاضرها المرير .. ويسلب من عينيها مجرد الحلم بالوصول إلى

برّ الانتماء والبقاء ... وبدأت تعصف بها صرخات هذه الروح التي عرفت مذ وعيت جنون الظمأ والشوق ... ولامست بأناملها المرتعشة لهيب العاطفة الفياضة المتأججة ، فاحترقت مراراً بضرامها المستعر واكتوت بنار الصدق والطهر والطيبة ... وظلت ترفّ وتهفو كطيرٍ جريحٍ .. تحتجزه أسلاك ذهبية في قفص ملكي مرصّع وليس يغريها من مباهج الملك عرش ولا صولجان ..... وهي الأسيرة المطوقة أبداً في طوق لا فكاك منه وعمق لا قرار له .

..... وبعد ..... فماذا تصنع بهذه الروح ؟ ومن أجلها أشهرت سيوف المطالبة والتلهف والطموح ، فارتدت جميعها خاضعة منثلمة .. ورفعت رايات الأمل والحلم والرغائب فتنكست مذلولة مستباحة .. وقاتلت بكل فرسان الدفاع والهجوم فكادت تضيع في الشعاب يصرعها الانكسار الخائب ..

وراحت تمدّ يداً ... واليد جدّ قصيرة ... إلى منابت النجوم وترفع عيناً ... والعين مرغمة خفيضة ... إلى شواهق الهموم لا يستجيب لها واقع محكوم بالتناقض والقهر والتقزم .. ولا تعينها على التحليق حقيقة مطلقة ذات أجنحةٍ عملاقة .. وصار حالها حال من تقع بين المطرقة والسندان .. تشتد بها نوازع العطاء أو بواعث الطموح ، أو لعلها تشتد عليها مطارق الفضول واللهفة والنهم المستمر .. فتحتجزها دائماً مساحات وحدود من المنع .. والكفّ .. وتبتر وثبها كوابح من كل صنف ولون .. وتشلّ حركتها قيود وقيود .. في شتى المجالات والمناحي .. ففي الناس والمجتمع وقوانينهم ، تتكاثر المتعلقات والإفتراضات المربكة ... وفي النفس ومداخلها وأنوثتها تصطفّ النواهي والزواجر رتلاً عظيماً ، يتحلق حول تكوينها الفطري والمكتسب ، ليحدّ أو

يؤجل أو يلغي الكثير من امتداداتها المتوقعة أو تطلعاتها المنبثقة عن ذاتٍ متميزة ... وهي إن أرادت المسالمة أمام هذا الصراع المفروض عليها .. خسرت كثيراً من مقوماتها الخاصة ... وإن أرادت التمرّد .. كانت كمن ينطح برأسه صخراً أو جداراً .... فإن أفلحت في نوال بعض الحلم ... كان الحلم دامياً بطريقة أو بأخرى .... وإن فشلت كانت الخسارة على كلّ صعيد ... فما أبقت لها أرضاً ولا سماء .

.. ولكن .....

..... ولأنها امرأة ذكية متميزة ، فقد حاولت أن تجعل من فحم واقعها ماساً رائع البريق ..

حاولت أن تكون الجنّية الطيّبة وعصاها السحرية لتحيل رثّ سندريلا لباساً فاخراً مرصعاً .. وتصنع من توافه كوخها عربة ملكية فارهة تحمل المدعوة الحقيقية إلى قصر الحياة .....

.....ولأنّها امرأة مختلفة ... فقد حاولت أن تكون ... وحاولت أن تفعل ..... وما تزال تحاول.

# الصّحن الوحيد

أمام باب من أبواب الدور العربية القديمة .. وقف السيد سليم مع عناصر مجموعته ينتظرون من بالداخل ..

فتح صاحب الدار الباب وهو يبتلع لقمة كان يمضغها ، وفي يده قطعة من البصل الأخضر ..

بادره قائد المجموعة قائلاً :

– نحن يا سيدي من لجنة الحفاظ على الآثار لدينا مهمة رسمية بمعاينة الدور الأثرية ، وتسجيل الملاحظات عنها نستسمحك بالدخول لدقائق قليلة ، إذا لم يكن لديك مانع ... لقد انتصف النهار وأرى أنّه وقت الراحة .. أنا آسف حقاً ... داركم هي الأخيرة في عمل اليوم .. لذا فنحن مضطرون لإنهاء الشريحة المقررة ..

– حسنا انتظروني لحظة ..

وغاب صاحب الدار برهة قصيرة تمهيداً لدخول أعضاء اللجنة ثم جاء يدعوهم :

– تفضلوا يا سادة .. تفضلوا من هنا ..

دخل أفراد المجموعة إلى صحن الدّار .. وراح كلّ واحد يقوم بواجبه على وجه السرعة تحاشياً للإزعاج .. كان يبدو واضحاً أنّ العائلة في وقت الغداء ، ففي

ركن من أركان الباحة كان الأولاد يجتمعون للطعام تتدافع أياديهم فوق ذلك الصّحن الذي يتوسط طبقاً من القش الملون وقد احتضن كلّ منهم نصيبه من كسرات الخبز ... وكانوا يأكلون بنهم واضح ... ويلتهمون كلّ ما علق على أطراف أصابعهم ..

عاد السّيد سليم إلى منزله وقد نال منه التعب والجوع .. كانت زوجته الطيبة قد جهّزت فوق المائدة أطباقاً متنوعة شهيّة .. من المقبلات والأصناف الرئيسيّة .. والحلوى .. واجتمعت الأسرة على طعامها .. جلس رامي ذو السنوات العشر على كرسيه قرب أبيه ، وقد أبدى امتعاضاً واضحاً :

– ما هذا .؟ أنا لا أحبّ هذا ولا هذا .. أريد بعض الحساء لماذا لم تطبخي لنا الحساء ؟؟.

التقط ملعقته بتأفف وقال :

– ماذا سآكل الآن ..؟.

قال الأب مستغرباً :

– كلّ هذه الأصناف موجودة أمامك ثمّ ترفض أن تأكل ! عجيب أمرك يا ولد .. إنّ في كل نوع من الغذاء فوائد جمة وضرورية لنمو جسمك .. هيا قل " بسم الله " وابدأ .

– لا أريد ... لا أريد .

تجاهله الأب تماماً .. والتفت إلى أخته التي تصغره بعامين قائلاً :

– وأنت يا لبنى .. لِمَ لا تأكلين ؟.

– لقد قلت لماما إنّي أريد الرز مع الطعام .. أنا لا أحبّه وحده .

ردّت الأم بسرعة :

– قلت لك إنّه لا رزّ لدينا .. هيا تذوقيه وانظري كم هو طيب .

– لا أريد ... سآكل بعض الجبن والمربى .

نظرت الأم بغضب ثم قالت :

– ماذا أفعل لكم ؟؟ لقد حيرتموني .. آكل هذا ... ولا آكل هذا ، وما تحبينه أنت .. لايحبه أخوك ، والذي يريده هو .. لا تريدينه أنت .. لقد تعبت معكم وأنتم دائماً على هذه الحال .

أنهى الأب طعامه وحمد الله ... ثمّ توجّه إلى غرفة مكتبه ليقوم بتوثيق المعلومات التي حصل عليها لهذا اليوم .

كان عقله يفكر وبشكل ملحّ في وضع ولديه ..... أدرك أن الأمر لا يعالج بالإكراه أو بالضغط ، وأن النتيجة لن تكون سوى العناد والإصرار .

راح يفكر بالحلول .. وبالطرق المناسبة للتربية .. ثمّ ما لبثت أن قفزت إلى مخيلته صورة الأولاد في ذلك البيت الأخير وهم يتهافتون على صحنٍ وحيدٍ فوق طبق القش الملون .... قال في نفسه ... ( حقاً إنّ من الفقر لحكمة ... وإن للجوع ناب يعضّ به على البطر والتكبر .. حقاً إن الممنوع مرغوب

والمعروض مبذول .. ومن منع النعمة رغب فيها وحرص عليها وكرّمها واجتهد في مداراتها ) ..

وبعد طول تفكير ، وبحث ودراسة ، قرر أبو رامي أن يخضع ولديه لتجربة قاسية ، تعلمهما درساً بليغاً في الحياة بشكل عام ..... وراح يرسم للخطّة كلّ اتجاهاتها و عناصرها ، حتى حانت ساعة الصفر .

وفي ذلك اليوم الموعود .. وفور وصول الأب الى البيت ، رنّ الجرس في إثره .. كان في الباب ضابط ينفذ حكم الحجز على المنزل بما فيه ويطالبهم جميعاً بمغادرته فوراً .. ودون تأخير .. تظاهر أبو رامي بالممانعة قليلاً ثمّ قال في النهاية :

– دعني فقط آخذ بعضاً من أشيائنا الهامة .

– أبداً .. أبداً .. غير مسموح لك أن تُخرج من المنزل ولو إبرة .. هيّا اخرجوا .. لدينا أعمال كثيرة .. لا تعطلونا .. هيّا .

تظاهرت الأم بالبكاء .. حاولت أن تستجديه البقاء .

– أبداً .. أبداً يا خانم هيا .

وخرجت الأسرة الصغيرة إلى الشارع .. كان الأولاد يدركون بفطرتهم أنّ ثمّة أمراً جللاً قد طرأ عليهم لذا فقد لاذوا بصمت طفولي حائر ..... وازدادوا التصاقا بأمهم وأبيهم .

مشوا طويلا قبل أن يقرر الأب نهاية المسير .. ثم اتجه بهم إلى فندق صغير في حارة شعبية تكاد تكون مهترئة .. كان كل شيء في الفندق قديماً أو بالياً أو مستهلكاً ... البُسط غير ذات لون ولا معالم من كثرة الاستعمال .. المقاعد الخشبية متشققة أو مخلوعة .. الأسرّة صدئة تعلوها فرش مرقعة .. والأغطية لاهيئة لها ولا قوام .. وفي زاوية الغرفة التي صارت مأواهم الأخير توجد طاولة صغيرة فوقها بعض الأواني المستعملة ..

جلست الأم مطرقة حزينة وقد التف الأولاد حولها ... وحلّ المساء في هذه الغرفة الصغيرة القميئة ، ليزيد في كآبة سكانها وليلقي بظلاله الباردة على أطرافهم رغم حرارة الجو في ذلك الصيف البائس ..

قال رامي في خجلٍ وارتباك :

– أمي .. أنا جائع .

هبّ الأب واقفاً :

– أوه .. لقد شغلنا المصاب عن التفكير بالطعام .. حقكم عليّ ، الآن أخرج إلى أي دكان في الحارة وأشتري لكم شيئاً من الطعام .. ما رأيك يا أم رامي ماذا أحضر لكم ؟؟ .

– أي شيء .. لا يهمُّ .

بعد برهة ... عاد الأب يحمل في يديه رغيفاً واحداً وتفاحتين وقال :

– كلّ المحلات والدكاكين مغلقة .. هذا ما أعطانيه صاحب الفندق فلتتقاسموه أنتم .. أنا لست جائعاً .

ومرّت الأيام الثلاثة الأولى .. طويلة جدّاً ... وثقيلة جدّاً .. في الصباح يذهب الأب إلى عمله .. بينما تقضي الأم وولداها سحابة نهارهم في غرفتهم الخانقة .. وعند الظهيرة ، يعود الأب بشيء من الطعام المعلب أحياناً .. أو المقدد .. أو المحضّر تحضيراً سيئاً في تلك الحارة ..... ومع كسرات الخبز الجاف .. أو الخبز المحروق كانت الأسرة الصغيرة تتناول كل ما توفر لديها من الطعام .. دون التفكير بالبديل ودون التعرض لصنفٍ أو نوع بالذكر أو الاشتهاء ..

لقد صار المأزق الذي وقعت به العائلة سبباً للتخلي عن كثير من الترف غير المحمود .. وعن كثير من العادات المتعجرفة أو العنجهية .. وعن كثير من أسباب التبذير والبطر وسوء التدبير .

.....ومرت الأيام .....

مرت شهور الصيف بطولها قبل أن يعلن الأب بشرى فكّ الحجز المزعوم عن المنزل .

# موهوبون .... ولكن

التقوا .... كلٌّ يحمل في داخله براكين من الموهبة والإبداع ويحمل في يديه أصفاد من العجز والعدم ..

كان القيد مرّاً ... ينتزع من كلّ منهم رعشة الطموح ويزرع بدلا منها غصّة التحسر وألم الفقد ..

كان القيد مرّاً .. يفقدهم كل فرص الوصول إلى مشارف الحلم ، ويقطع عليهم كل محاولات البدايات الصّحيحة ، ويضع في عجلات مراكبهم عصيّ التأخر والتوقف ..

صرخ أحدهم صرخة مريرة :

– حمم البراكين تغلي في مراجل صمتي وسكوني .. تتلظّى بشظاياها جوانحي .. وتحترق بنارها مكنونات صدري ..

قال آخر :

– أناملي علاها الصّدأ القاتل .. وفارقتها المرونة واللياقة وصارت جليدية القلب والقالب ..

طأطأ ثالث رأسه قائلاً :

– ثمّة مايخمد شعلتي .. ويسلب قدرتي .. ويدفن جذوتي ..

بصوت خفيض همس رابعهم حزناً :

– لديّ الكثير من العطاءات النّاضجة الشّهية .. حبيسة ممنوعة ..

وقال آخر ..... وقال آخر .....

ثمّ هبّوا جميعاً .. وبصوتٍ واحدٍ يتساءلون :

– ماالذي ينقصنا لنكون كما نريد .. أو لنفعل ما نحبّ ؟ .

وتناثرت الآراء المختلفة هنا .. وهناك .. كزخّ المطر .. تحاول أن تشفي غليلاً طال أمده .. المال .. الحريّة .. الوقت .. الظروف المناسبة .. الآخرون ..

وسقطت الكلمة المدوية كالقنبلة في وسط الحضور .. قال آخرهم :

– بل العيب فينا وفي ذواتنا .. في ضعفٍ واستسلامٍ ينخر عظامنا وقلوبنا .. في كسلٍ واسترخاءٍ يُضمر عضلاتنا وقوانا في يأسٍ وتهاونٍ يلفح عيوننا بالظلمة والعتمة .. العيب فينا .. صدقوني .. وإنّني أتنسم بادرة الخلاص في طاقات التمرّد التمرد الواعي الموزون .. الرّاسخ الخطا في مسار الحقّ والصّواب ، وسيصيب كلّ منّا حظّه من النّجاح بمقدار حظّه من التمرّد السّليم .. فهل توافقونني الرأي يارفاق ؟

# الرسالة

خلت غرفة رئيس التحرير الجديد من وفود المهنئين والمهنئات العاملين في أكبر دار للنشر في مدينتنا .. ولأنّني صديقه الوحيد ، فقد تباطأت قليلا في العودة إلى قسمي لمتابعة العمل .. رحت أؤكد له استحقاقه لهذا المنصب العالي بجدارة كاملة وأمتدح فيه صفات الجد والنشاط والديناميكية قائلاً :

– لقد تكللّ مسعاك بالفوز المبين يا عماد .. والسّنوات الأخيرة هذه كانت سباقاً عنيفاً مع الزّمن ، اختصرت بها المسافات إلى النجاح وركّزت خلالها الجهود إلى التفوق .

وابتسم عماد ابتسامة دافئة غامضة .. أحسست منها بأنّه يرغب في قول شيء ما .. بينما كانت يده تستخرج من درج مكتبه دفتر مذكرات يحمل تاريخاً قديماً .. ولبثت أرقبه صامتاً .. وهو يفتح الدفتر حيث يتوضع ظرفٌ جميلٌ جُففتْ إلى جانبه وردة بيضاء راح يتحسسها بأطراف أصابعه بحنوٍّ وإجلال .. ثمّ أمسك بالرّسالة ونظر إليّ بعينين غامت فيهما ذكريات قديمة وقال :

– كعادتي في كلّ يوم .. وقبل غروب الشمس بساعة واحدة وصلتُ إلى ركني المعتاد في زاوية المقهى الصغير ... كنت أحمل أوراقي الكثيرة ودفتر مذكراتي الأنيق هذا ... وقد اشتريت لتوي من المكتبة المجاورة أقلاماً جديدةً .. وديوان

شعر .. وما إن وضعت ما تحمله يداي حتى رأيت مظروفاً يتوسط طاولتي المعهودة .. وفوق المظروف وردة بيضاء نديّة تحتضن بأوراقها الخضر برعمين صغيرين ... بادرت بوضع الوردة الجميلة في كأس الماء وإذ بنادل المقهى قد أحضر قهوتي في موعدها تماماً وعلى ثغره ابتسامة ماكرة وقال ( إنّها لك يا سيّدي ) وانصرف قبل أن أبتدره بسؤال أو استفهام .. كنت أصارع فضولي الشديد في معرفة مضمون المظروف وأنا أحاول أن أخمّن .. أو أستنتج .. وردة بيضاء .. مظروف ليس عليه كلمة وعلى طاولتي بالتحديد .. ممّن ؟ وما الذي يحويه ؟ .....

وصمت عماد فجأة .. والتفت إلي قائلاً :

– أتريد أن تخمّن ؟ .

قلت :

– من ..... من معجبة .

ولم يعر قولي اهتماماً .. فلعلّه لم يسمعه .. أو ربّما سمعه فلم يشأ أن يشوب لحظات الإجلال التي يستظل بكنفها دعابة ساذجة ... وفتح الرسالة وقدّمها لي وقال بهدوءٍ رزين :

– اقرأ .

وقبل أن تهبط نظراتي إلى أسفل الورقة لأعرف المرسل قال :

– اقرأ من البداية فلن يجديك التوقيع شيئاً ..

ورحت أقرأ .. " صديقي المؤلف الناشىء .. ليس ما أهاب بي أن أكتب إليك هذه الكلمات .. فكرة عابثة أوعاطفة آسرة .. فأنا لست في سن يزدهيها غرور العبث .. ولا تحركها العواطف الخلابة .. وفي الخمسين التي فرّت بخمسة أخرى من أعوامي ما يشرفني بوقار الكلمات وجدّيتها .. وينزه عندي الدافع أو الغرض .. لذا فلا يهمّنك أن تعرف كيف وصلت إلى معرفة ما عرفت عنك .. بل خذ من خلاصة القول ما ينفعك ..

صديقي ... إن اعتيادك المقهى يضائل كسبك ، ويحدّد ماهيته وكميته .. فإن شئت الغنى والوفرة .. فانطلق إلى كلّ حدب وصوب .. والتقط شذرات المعرفة والحكمة من كلّ سبيل وخالط جميع الناس لتعود بحصيلة يومك من قصصهم ومعاناتهم ثروات عظيمة تكتنزها في خزائن فكرك وأدبك .. فالأدب من الحياة وعن الحياة .. والحياة حركة دائبة ، والوقوف أو السكون يعني الموت في خضم لا يهدأ ولا يسكن .. فلا تطل الوقوف في هذا الزمن المتحرك .. واغتنم شباب العمر والفكر .. فالطاقة في الشباب وقّادة خلاقة .. و بخاصةٍ لمن حاز الموهبة .. ولك أن تحشد قواك كلها من أجل تنمية المقدرة الإبداعية والإنتاجية لديك .. وستلمس حتماً ، نتائج جهدك المركّز وسعيك الدؤوب ثراء فكرياً عظيماً .. وموقعاً متقدماً متميزاً ، يجعلك تفوز بين أقرانك على ما أنت عليه من حسن خلق وكرامة .. فترقى سلم المجد والشهرة بخطىً واسعة واثقة ...

ابدأ .... ابدأ الآن واشحذ العزم .. ولا تركن بعد ذلك إلى الدّعة أو الكسل فالثمار الناضجة الشهية جديرة بكل ما يسبقها من تعب ومعاناة وسهر ..... التوقيع : سيدة طموحة " ..

تأملت الرسالة بدهشة واستغراب ... ورفعت ناظري إلى وجه صديقي عماد ... وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة ... طرق الباب ودخل البوّاب وفي يده باقة من الورود البيضاء الجميلة ذيلت ببطاقة صغيرة كتب عليها " أعظم التهاني وأرقها .... ومن نصر إلى نصر أكبر ..... التوقيع : سيدة طموحة " .

# العائد

حين دقّت السّاعة الحادية عشرة ظهراً .. نظرت سلمى إلى برقية أرسلها زوجها الغائب يحدّد فيها وصوله إلى المنزل في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً .. ثم نظرت إلى ما حولها .. لتتأكد من أنّ كلّ شيء أصبح جاهزاً كما تخيلته وكما قررت له ..

لقد أخذتْ اليوم إجازة من عملها .. وبالغت في ترتيب وتزيين المنزل .. صحيح أنه بسيط ومتواضع ، لكنّ كلّ شيء فيه جميل وجديد وينمّ بوضوحٍ عن لمساتها الفنية وإبداعاتها .. التي أضفتها فوق كلّ ركن من الأركان ..

كان كلّ شيء جاهزاً .. كما تخيلته تماماً ..

هنا .. وبقرب باب الشّقة ... أسندت إلى الجدار حقيبة سفر حزمت فيها جميع حاجيات زوجها ، مرتّبة نظيفة مكوية ..

هنا .. على هذه الطاولة التي تتوسط صالة الدّخول وبإزاء آنية الزّهر .. وضعت صندوقاً خشبياً صغيراً مزخرفاً بالعاج والصدف .. ضمّنته كل أشيائه وخصوصياته ..... صوره الخاصة .. أوراقه الشخصية ورسالتين يتيمتين كان قد أرسلهما لها في أول غربته ..

ونظرت إلى السّاعة .. الوقت يمر ببطءٍ شديدٍ .. وابنها الوحيد الذي يدرس في أولى سنيّ الجامعة ، سيصل بعد قليل ليكون في استقبال أبيه ..

إنّها السّاعة الأخيرة .. وإنّها خمسة عشر عاماً .. جعلت فيها سلمى هذا الرجل زوجاً بإرادتها .. وكان قد خيّرها بإعطائها حرّيّتها .. واليوم .. يعود من رحلته الطويلة إلى منزله .. ولكن لا لم يعد منزله .. فقد اشترته من كسبها وعملها ، بعد سنين عديدة من استئجاره .. وبعد معاناة طويلة في تسديد أقساطه .. وإتمام ثمنه ..

كانت تعمل في النّهار موظفة في إحدى الشّركات .. وتقضي ما تبقى من ساعات يومها بخياطة أثواب لمعارفها وجيرانها والأقرباء ... أو بصنع لوحات أو قطع فنيّة تبيعها لدى محلات التحف والزّينة .... ولم تكن تهدأ أبداً .. فما أكثر مسؤولياتها وواجباتها .. طفلها الصغير لم يتجاوز أعوامه الخمسة .. منزلها الذي تسكنه بالأجرة .. ضروريات حياتها وحياة ابنها .. من طعام وشراب ولباس .. لوازم تعليم ابنها ومصاريف دراسته .. وغيرها من المصاريف في حالات طارئة من مرض أو عرض ..

كان صراعاً مريراً مع البقاء ... واجهته في لحظةٍ واحدةٍ حين أخبرها والد زوجها أنّ ابنه المسافر قد تزوج في الغربة من ابنة صاحب العمل وأنّه لا يفكر في العودة إلى وطنه .. بل وأنّه يمنحها حريتها إن شاءت .. لكنها لم تتردّد طويلاً في إبلاغها لوالد زوجها أنّها تريد البقاء على ذمته .... وقرّرت أن تكون زوجة لرجل سيعود يوماً ما ... بدلاً من أن تكون مطلقته ، وراحت في إطار

قرارها واختيارها هذا تعمل المستحيل كي تثبت لنفسها أولاً وللآخرين .. أنّها قادرة على أن تعيش بدون رجل وأن تكفي بيتها حاجاته ومتطلباته ..

ومرت سنين الجهد والمعاناة .. واستقام الحال لها ..

وبدأت تعيش مع رجلها الصغير .. وحيدها .. أحلى أيام عمرها .. وقد صار لها كلّ شيء في الحياة .. وصارت له الأب والأم والنّاس .. ولم يكن ينقصهما أي شيء .. أو يعكّر صفوهما وتفاهمهما أيّ طارىء ..

كانت أخبار الزوج تصلهما عن طريق أهله .. لقد أثرى واغتنى وبات يملك من الملايين عشراتها .. أنجب ولدين .. مات أحدهما بحمى دماغية .. أما الآخر فقد قرر البقاء إلى جانب أمه التي رفضت المجيء مع زوجها إلى وطنه حين قرّر العودة ، فطلّقها وقام بتصفية جميع أعماله ..... استعداداً ليوم الرجوع إلى الأهل والوطن ..

... هي ذكريات كثيرة ... تتنازعها في هذه الساعة الأخيرة ، لقد كان زواجهما الذي دام حوالي أربع سنين زواجاً سعيداً هانئاً ، يرفرف عليه جناح التفاهم والانسجام ، ويظلله الأنس والسرور والفرح ، ومن ثم أملت عليهما رغبة تحسين وضعهما المعاشي فكرة السفر إلى خارج البلاد من أجل العمل .. ولم تكن تعلم أنها لحظة وداعه في المطار قد ودّعت معه سعادة زواجها وديمومته ..

نعم هي ذكريات كثيرة تتنازعها في هذه السّاعة الأخيرة .. بل الدقائق الأخيرة والتي ستسدل فيها السّتار عن قصة زواجها الضائع ..

سيطرق الباب ....

وسيستقبل الابن أباه بكلّ احترام .. كما ربّته على ذلك .

أما هي ... فسترحّب به ترحيباً عادياً ... ثمّ ... والآن فقط سوف تطلب الطلاق .

# المزاد

أخذت تهاني تبكي وتنتحب حين أدركت سبب زيارة أم سعيد المفاجئة وراحت تقدّم لها وتؤخّر .. دون جدوى .. لعلّها تثنيها عن عزمها على استرداد الوليد الذي أحضرته لها بالأمس مقابل مبلغ زهيد من المال .. وانتهى الأمر بها إلى أن وقفت تستجديها بالباب قائلة :

– أرجوك يا أم سعيد .. أرجوك لا تأخذيه منّي .. سأبيع أيّ قطعة من الأثاث وأزيد لك المبلغ أرجوك ..

وبوجهٍ يحمل بعض الأسف .. ردّت أمّ سعيد وهي تخرج به مسرعة :

– لن تستطيعي تأمين مبلغ خمسين ألفاً الآن .. وأنا أولى بها انتظري فرصة أخرى .

..... وعاد إلى البيت سكونه الذي فارقه خلال بضعة أيام خلت .. ونظرت تهاني إلى بعض الحاجيات الصّغيرة المتناثرة هنا وهناك ، وانفجرت في البكاء المرير ..

كان زوج تهاني رجلاً طيب المعشر .. حسن الأخلاق .. إلا أنّه كان غير قادرٍ على الإنجاب ، الأمر الذي دعاه غير مرّة أن يطلب إلى زوجته أن يفارقها عساها تجد الولد عند غيره لكنها كانت تحبه وترعاه بوفاءٍ وكرم ولطالما

رفضت عرضه هذا مراراً وتكراراً إلى أن اقترح عليها ذات يوم فكرة استحضار طفل حديث الولادة لرعايته .. وراقت لها الفكرة فسعت إلى تنفيذها .. راغبة آملة وذهبت إلى أمّ سعيد قابلة الحيّ تعرض عليها ما تريد ..

وكان الثمن الذي طلبته القابلة رغم ضآلته .. باهظاً .. ذلك أنّها لا تعمل ، وزوجها موظف بسيط .. واحتالا للأمر فجمعا المطلوب وقد استدانا أغلبه .. وحانت ساعة الصفر .. ودخلت أم سعيد بالوليد منذ بضعة أيام فقط لتنال أجرتها ..

وكانت أيام حلوة تلك التي مرت بهم وقد اختلط ليلهم ونهارهم بصراخ الوليد وبكائه .. وتعلّق الزوجان به تعلقاً شديداً .. بل وأخذا يتنافسان في الإهتمام به ورعايته .. أسمياه بديع .. وصار كل منهما يتفنن في مداعبته وملاطفته

إلا أنّ أيّام بديع كانت قصيرة جداً .. بل انتهت قبل أن تبدأ ..

وظلت تهاني تبكي لساعاتٍ قبل عودة الزوج من عمله .. وما أن رأته حتى راحت تقول ساخرة :

– قالت لي انتظري فرصة أخرى ... انتظري فرصة أخرى.

# أقلام ..... مع وقف التنفيذ

كتبت كلماتي الملوّنة ..... بكلّ ما في الأرض والسّماء من أبجديات اللون والحياة ... لكنني بعد ذلك ... سجنت عرائس كتاباتي والقوافي في غيهب الظلام والصّمت ..

ورسمت لوحاتي المتدفقة بالظلال والعواطف والمعاني ..... ثم دفنت إيقاعات فنوني ونبض الجمال في مصنفات مطوية مؤجلة ..

فعلت ذلك مراراً ..... وأفعله دائماً ..... لأنّهم .. وفي كلّ مرّة كانوا جميعاً أو فرادى .. يكسرون أقلامي .. ويرمون بأشلائها في وجهي تارة ، وفي سلة المهملات تارة أخرى ، وفي الفراغ والعدم واللامبالاة أحياناً كثيرة ..

في كلّ مرّة .. كانوا يقلبون الدواة فوق الأوراق فتتمرغ السّطور في أوحال الجحود والتنكر ، وتغرق الحروف في مساحات الحبر الضّائع .... وعندما كانوا يصفقون .. كانت كفوفهم وأناملهم ، تعزف في أعماقي معزوفة الشّفقة والتعزية ، ويهدر صداها في أرجاء معاناتي القديمة الموغلة في القدم ، فينتابني الصّداع من هذا الهدير الزّائف ومن هذه السّخرية المرّة ..

قاومت قسوتهم طويلاً .. وعاندت تعسفهم كثيراً .. ولأنني أحبّ أقلامي صار في داخلي نهمٌ قاتلٌ لكلّ أقلام الدنيا .. ورحت أسرف في الشراء والاقتناء .... وراحوا يعاودون كسر أقلامي ويسرفون في تحطيمها وإقصائها .

..... ولم أيأس .....

بحثت عن أقلام لا تكسر .. أقلام تمارس حقها في الوجود دون خوفٍ من معارضة سيدٍ أو مقاومة سلطانٍ أو تهميش ذي غرض ..

بحثت عن أقلام عزيزة المنال .. لاتطالها يدٌ بأذى ولاتنقص من قدرها عين ...

عن أقلام سحرية التحرك .. تراوغ بين الظهور والاختفاء ...

عن أقلام ثمينة تبهر الأبصار بحسها الرفيع وذوقها المتسامي ..

بحثت عن أقلام تجيد الأدب والفن والعلم .. تجيد حتى الرقص والغناء ...

عن أقلام تهوى التسلق إلى قمم الجبال والأشجار السامقة .. وأخرى تتقن الغوص في بحار اللؤلؤ والمرجان والمحار .. وثالثة تلهو بكثبان الرمال في الصحارى الشاسعة المليئة بالواحات والسراب ، فتصنع منها القصور والقلاع ثم تهدمها لتبني من ذراتها أهرامات ومعابد ..

بحثت عن أقلام تمارس ألعاب الخفة والسحر الحلال وتقفز من فوق الحبال ببهلوانيةٍ وذكاء ..

بحثت عن أقلام تعرف كيف تغيّر خارطة الأشياء وتعدّل في حسابات الزمن والأبعاد المتزايدة ..

ووجدتها جميعاً ..... واقتنيتها جميعاً .....

جعلتها جزءاً من يدي ومن حياتي ... ورحت أدهش الأصدقاء بروائع مجموعتي ووفرة أنواعها وأصنافها ... وصارت التفاصيل الماهرة تسافر بهم إلى عوالم الثراء والمتعة ... وكانوا يعلقون دائماً على غنى مملكتي هذه :

– أنت كاتبٌ مبدعٌ ..... وأقلامك متميزة جداً .. جداً .. لكنها مع الأسف .. أقلام مع وقف التنفيذ .

# على أبواب الحلم

حين اجتمعت الأسرة الصغيرة على مائدة الطعام للغداء .. لاحظ الأب انطواءً في سلوك ولده علاء ، وصمتاً غير اعتيادي منه ، إلا أنّه اعتقد أنّ هذا نوع من الاعتراض على العقوبة التي أنزلت على أخيه الأصغر بحرمانه من الطعام مع الأسرة واستبقائه في غرفة الأولاد ، لذا فقد تجاهل الأمر ... وتناول طعامه بصورة طبيعية تماماً .. ودون تعليق ..

لكن استغراق علاء في التفكير وبعده عن الإحساس بما حوله حدا بالأب أن يبتدر ابنه بالحوار الهادىء كعادتهما ، وهيّأ له أسباب جلسةٍ خاصةٍ في ركن الجلوس في المنزل ..

كان أبو علاء قد بذل جهداً متواصلاً في تنمية روح الصراحة والتفاهم بينه وبين ولديه اللذين لم تتجاوز أعمارهما الثامنة ، كما جعل الحوار الواعي ركيزة تربيتهما .. وأساس صياغة شخصيتهما ..

وسأل الأب ابنه عن الأمر .. ثم فتح له المجال ليعبّر عن ذاته إلا أنّ جواب علاء كان أعمق بكثير مما توقعه الأب .. فهو قد رد على السؤال بسؤال أكبر يحمل في طياته إشارة استفهام غير آنية ، تعتمل داخل نفسه منذ فترة ليست بالقصيرة ..

لقد قال علاء جاداً :

– أبي .. أنت تعامل أخي الأصغر بطريقة تختلف عما تعاملني به .. فلماذا ؟
نظر الأب إلى الملامح البريئة وهي تفيض ذكاءً .. وحباً للمعرفة .. فأعجب بها .. وأحس بالفخر من خلال ما زرعه في عقلية ولده من حبّ للمناقشة الموضوعية .. وجدّية المحاكمة للأمور .. ولبث برهة في صمته .. يبحث عن مدخل يتناسب وحداثة سن طفله في تبرير مواقفه .. حتى لا يسيء الطفل الفهم ، فيظنها بذوراً للتفرقة والتمييز والمحاباة .. ثم استبقاه قليلاً وذهب ليعود بأشياء بين يديه .. كان يحمل لوحاً خشبياً صغيراً .. مع منشار ومطرقة ومسامير .. بالإضافة إلى قطعة قماش مع مقص وإبرة وخيطان ... ثم جلس في مواجهة صغيره وقال :
– والآن يا علاء ... لو أردت أن أصنع من هذا اللوح الخشبي طاولة صغيرة كهذه .. أو رفوفاً لمكتبتنا هنا .. أو كرسياً صغيراً لتجلس عليه .. فإني أرسم فوق اللوح الشكل الذي أريد .. ثم أستخدم هذا المنشار هكذا في تقطيع الخشب .. ثم أجمع القطع بواسطة هذه المطرقة والمسامير ..... وأظنك تفهمني ... والآن لو أردت أن أصنع من هذا القماش بنطالاً لك .. أو قميصاً لأخيك .. أو ثوباً لوالدتك .. فإني أرسم فوق القماش الشكل الذي أريد .. ثم أستخدم هذا المقص هكذا في قص القطع المطلوبة .. ثم أخيط الأجزاء بواسطة هذه الإبرة والخيطان .... والآن فلنتساءل .. هل يناسب أن أقطع الخشب بالمقص وأخيطه بالإبرة هكذا .. لا .. لا يمكن .. كذلك ..

يستحيل أن أقصّ القماش بالمنشار وأن أجمعه بالمسامير .. وإذاً .. فكل نوع له أدواته الخاصة التي تصلح للتعامل معه دون غيره ... وسكت الأب قليلاً .. ليتيح لولده هضم واستيعاب ما قيل .. ثمّ .. مدّ ذراعيه وأجلسه على ركبته اليمنى .. بينما وجه الطفل يتلألأ فرحاً بمعرفة العلاقة بين الأشياء .. وبالجديد الذي تعلمه ..

أضاف أبو علاء :

– والناس أنواع ... والأولاد كذلك أنواع .. ما يصلح لك قد لا يصلح لابن عمك .. وما يصلح لأخيك قد لا يصلح لابن الجيران ، لكلّ واحد من البشر خصوصية .. وطريقة تصلح للتعامل معه دون غيره ..

وابتسم علاء شبه فاهم .. فسأله أبوه :

– هل ترى يا علاء أني أعاملك بشكلٍ صحيح ..

وردّ على الفور:

– نعم يا أبي ..

فأجاب الأب :

– إذن .... فلتثق في حكمة أبيك ..

عندها ... عانق علاء أباه وأغمض عينيه قائلاً ببراءةٍ طفوليةٍ :

– عندما أكبر يا أبي ... سأعامل أولادي مثلك .

# بضع قطرات

قال لنفسه ..... والأسى يعتصره :

" أملك الكثير من مقومات القوة .. ومع ذلك أشعر بالضعف الكبير .. عندي مال وفير لا حدود له والمال قوة .. عندي حرية شبه مطلقة والحرية قوة لدي الجاه والعز والسلطة .. وذاتي متكاملة بالمركز العلمي .. ورجولتي متمايزة مظهراً ومخبراً ومع ذلك أشعر بالضعف ... فما الذي ينقصني؟؟ "..

فكر طويلاً .. فكر كثيراً .. ثم قال :

"إنّ ما ينقصني هو أن أحِسّ بالآخرين .. وأن يُحسوا بي .. إن وحدتي هي نقطة ضعفي .. وسبب شقائي .. وحدتي تسلبني القوة وتتركني أعزلا .. لا زاد ولاعتاد .. بضع قطرات من حبّ الناس تكفي .. بقية في الكأس .. أو الثمالة .. ويصنع الحبّ المعجزات ويغدو التواصل مع الآخرين الثروة والثراء .. القوة والانتماء .. والسعادة والاكتفاء ... عندها تزول حواجز الغربة .. ويكبر الفرح .. بهم وبالحبّ أصير أسعد ... بهم وبالحبّ أصير أقوى " ..

مدّ يده الظامئة إلى مصافحة صديق .. تناول بها دليل هواتفه الخاصة .... ولأوّل مرّة في حياته .... راح يخابر إنسانا ليست له مصلحة معه ... ولا يريد منه سوى ... أن يلتقيا .. قلباً لقلب ... وصدقاً لصدق .

# عقد الياسمين

توقفت السيارة أمام منزل السيد جلال ..... ونزلت منها فتاة تحمل في يدها علبة متواضعة غُلّفت بورق ملوّن وربطت بشريط ذهبي له عقدة جميلة وضع على أحد طرفيها ورقة كتب عليها (.. مبروك ..) كان المنزل مضاء الجوانب كثيرالأنوار تخرج من نوافذه أنغام موسيقية راقصة .. تتخللها ضحكات وزغاريد .. بددت هدوء الليل الذي يحيط المكان بستاره الداكن الموشى بالكواكب .. لتعلن عن ليلة زفاف الابنة الكبرى للسيد جلال ..

تجاوزت أمل حديقة الفيلا برفقة البواب .. ودخلت إلى حجرة مجاورة للقاعة الكبيرة التي اجتمعت فيها المدعوات .. وبعد قليل أقبلت ناهد وهي ترفل في ثوب طويل أرجواني مزركش وقد نظمت شعرها الأشقر بشكل رائع أضفى على وجهها الجميل حسناً زائداً وجاذبية .. لم تكن تعلم من هي الزائرة التي ترفض الدخول إلى القاعة .. وما أن رأتها حتى هتفت بفرح و بسرور:

– أمل ...؟؟!!

– ناهد .

وتعانقت الفتاتان بعد أن أمطرت كلّ منهما صديقتها بقبلات حارة مبعثها الإنقطاع الطويل .. والبعد .. وفاضت عيناهما بشيء من الدموع وهما ما

تزالان واقفتان .. كانت نظرات ناهد حائرة يتناوب فيها الشك مع اليقين .. والدهشة مع الحبور .

– أمل .. أهذه أنت ؟؟ بعد كلّ هذه المدة ؟؟ أكاد لا أصدق .. ياإلهي ما أشد سعادتي ..!! أين كنت ؟؟ لماذا غبت عنّا ؟؟ .

وردت أمل ضاحكة :

– مهلاً .. مهلاً .. أرى كلماتك تتلاحق مسرعة كما لو كنت سأهرب .. ألا فانظري إلى وجهك في المرآة .. لقد أفسدت الدموع زينته .

– إنّ فرحتي برجوعك إلينا وبرؤياك أهمّ بكثير .. أنت غالية علينا .

ابتلعت أمل غصتها ... وأغمضت عينيها لحظة كأنها تتذكر أمراً ما ، وراحت تعمل جاهدة كي تخفي بوادر حزن أخذ يطوف على ملامحها ويرتسم فوق أساريرها .. قالت :

– جئت مهنئة بزفاف منى .. أتمنى لها السعادة الدائمة وأرجو أن تقبل هديتي هذه .. لقد صنعتها بنفسي .. بلغيها تحياتي .

تناولت ناهد الهدية شاكرة .. بينما دارت أسئلة كثيرة في خلدها ولم تشأ أن تضيع الفرصة .

– أمل صارحيني .. ماذا حدث بينك وبين أختي ؟ ما كان في الوجود أمتن من صداقتكما ولا أروع من صحبتكما .. حدثيني عما جرى ؟؟ .

– إنّه مجرّد سوء تفاهم .. زرعت بذوره زميلة لنا ملأ الحسد قلبها ، وآلمها أن يرفرف التفاهم والوئام على دنيا صديقتين .. ولقد كانت لها محاولات سابقة لم تنجح .. وأخيراً .. استطاعت أن تفرق بيننا .. صدقيني .. لقد حاولت إزالة سوء التفاهم بالهاتف .. لكنّها رفضت .. بل أصرّت على رفضها لصداقتي .. ورغم تأخّر حالتي الصحية آنذاك فقد حاولت زيارتها هنا .. لكنها رفضت حتى استقبالي .. وهكذا انتهى ...

وتوقفت الكلمات في حنجرة أمل .. وساد الصمت فترة يسيرة أردفت بعدها قائلة :

– ثمّ ازدادت حالتي الصحية سوءاً .. واضطرّ عمي للسفر بنا إلى مدينتهم حيث شفيت بعد أسبوعين .. ثمّ أمّن لي عملاً بسيطاً بينما أكمل دراستي الجامعية .

– إذن فهذا ما حدث .. أوه .. لقد آلمني ما سببته لك منى يجب أن أصلح بينكما الآن .. الآن .

– لا يا ناهد .. ليس الآن .. اتركيها سعيدة ولا تعكري صفوها فالأيام لم تنته بعد .. إنّ الوقت الآن لا يسمح بالعتاب أو المناقشة.

– أه .. حقاً هذا صحيح .. ولكن .

– ولكن يجب أن تعودي للحفلة .

– وأنت ؟؟ .

– أعود إلى منزلي .. لقد تأخرّت .

– لا .. لن أتركك تذهبين .. إنّها زيارة قصيرة .

– قد أعود .

ونهضت إلى بابٍ تنبعث من خلفه ضجة العرس .. وفتحته بمقدارٍ ضئيل جداً وراحت تطوف بنظرها على الجميع ... ثم وقفت عند تلك الفتاة التي تبدو كنجمة سقطت من السماء وهي تضج بالمرح والسعادة واغرورقت عيناها بالدموع وهي تلتفت إلى الوراء ..

كانت علامات الدهشة والإعجاب والكآبة ترتسم جميعها على ملامح ناهد فابتدرتها أمل قائلة :

– ماذا بك ؟؟ .

– لاشيء .. ولكن ما أشد إخلاصك ..!!! .

– نعم يا ناهد وإلى الأبد ، فقد عاهدتها على ذلك يوماً ولن أخون عهدي .

– يا لك من وفية .!!. ألا ليت منى تدرك أيّ جوهرة تلك التي تخلّت عنها وخسرتها .

وتشابكت الأيدي من جديد .. والتقت نظراتهما المضطربة

– إلى اللقاء .

– إلى اللقاء يا أمل .

وقفت ناهد بالباب تلوّح لها وهي تغالب دموعاً تصطرع في عينيها ، ثم أسرعت لإصلاح زينتها ، وللانضمام ثانية للحفل .. ولم يلحظ التغيير أحد من الموجودين إلا منى التي أحست به ولكنها أخفت رغبتها في معرفة الأمر .. وفي صباح اليوم التالي .. انهمك الرجال في القسم المخصص لهم بقبول التهاني والمهنئين بينما أخذت أم العروس وابنتاها وبعض القريبات بفتح الهدايا التي أرسلت للعروسين .. عندها تظاهرت ناهد بفتح بعض الهدايا وأخفت هدية أمل ... حتى تسنى لها الخروج بها ، وما كان من منى إلا أن تبعتها متذرعة بحجةٍ ما .. وعند باب غرفتها قالت لأختها ناهد في استغراب :

– ماذا أخذت من الهدايا ..؟ هاتها .

– وهل كنت موضع مراقبة منك .. إن أحداً لم يشعر بي .

– رأيت البارحة تغييراً على وجهك .. وأردت أن أعرف السبب بواسطة مراقبة تصرفاتك اليوم .. ما هذه العلبة ؟؟ أعطنيها .

– إنّها يا منى مجرّد هدية .. أردت لك أن تفتحيها أنت وحدك .

– لماذا ..؟؟ ممّن هي ..؟؟ .

وفتحت الهدية .. فرأت فيها عقدان من الياسمين .. أحدهما طبيعي والآخر اصطناعي .. صنعت أزهاره الناصعة بإتقانٍ شديدٍ يخطىء المرء في التفريق بينهما .. قالت منى في لهفة :

– لابدّ أنّ صاحب الهديّة يعرف قدر حبي للياسمين .. آه ما أروعه ..!!

وراحت تبحث في البطاقة المرفقة عن هويته .. كانت البطاقة معطرة برائحة الياسمين .. نظرت إلى أسفلها فلم تر توقيعاً ولا اسماً فازدادت عجباً.. عادت إلى مطلعها لتجد خطاً جميلاً معروفاً في ذاكرتها .. ولم يعد بها حاجة للبحث عن الاسم فقد عادت إلى مخيلتها ذكريات حميمة في ثنايا حروف ذلك الخط الجميل .. وغشّى الاضطراب يديها وغطت عينيها غلالة رقيقة من الدموع .. حجبت عنها الكلمات المكتوبة .. وبعد لحظات مضطربة دامعة .. عادت إلى عبارات صديقتها أمل .. لتقرأ فيها الأمنيات الطيبة .. مذيّلة بعهدٍ جديدٍ ودائم على الوفاء والإخلاص .

واجتاحت عاصفة الدموع عينيها مرّة أخرى ..... فألقت بنفسها بين ذراعي أختها قائلة :

– إنّها وفيّة .. مخلصة .. أكثر مني بكثير .. وأنا أكنّ لها محبّة كبيرة لكني أخطأت في حقّها .. وندمت كثيراً .. ولكن بعد فوات الأوان اكتشفت خطئي .. فأخذت أبحث عنها في كلّ مكان اعتدت أن أراها فيه .. ولم أجدها .. شعرت بالحزن وبالندم بمرارة حرماني منها وبعدي عنها ... أردت أن أبوح لك بما يعتلج في صدري من عذاب لكن كبريائي الزائفة منعتني أن أخبرك أنّني أنا المخطئة .. كنت أريد مساعدتك في العثور عليها ولم أجرؤ على ذكر ذلك .. ثمّ آثرت الصمت ، والأيام لا تزيد صورتها في مخيلتي إلا وضوحاً وتألّقاً .. ولا تزيدني إليها إلا شوقاً وحنيناً .

وصمتت منى .. وانسلت من بين ذراعي أختها لترى عبراتها المتدفقة ، وخيم على المكان صمت ثقيل .. قطعته منى فجأة وبعجلة من استدرك شيئاً :

– من أوصل هدية أمل إلينا ..؟؟؟ .

ونظرت إلى أختها الصامتة .. وألحّت :

– من أوصل الهديّة يا ناهد ؟؟ أجيبي .

– إنّها .... إنّها هي .

– يا إلهي .. كيف لم تخبريني ؟؟ لماذا لم تقولي لي ؟؟ كنت أودّ رؤياها حقاً .. لماذا لم تخبريني ؟؟ لماذا لم تفعلي ؟؟ .

– لقد رفضت أن أخبرك ..... فهي تعتقد بأنّها قد فقدت مكانتها عندك وأنت لم تخبريني برجوعك عن الخطأ لأزيل اعتقادها هذا.

– وهل ذهبت دون أن تخبرك بموعد زيارتها لنا ؟

– نعم .. فقط .. قالت .. قد أعود .

– متى .. متى ؟ أنا لن أستطيع الإنتظار .. بل ربما لن تعود .

وأخذت منى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً .. وخطواتها هادئة تنمّ عن تفكيرٍ منسّقٍ غير مضطرب .. وفجأة .. صاحت ( تذكرت كلّ شيء .. نعم .. في عقد الياسمين ) وبدت وكأنّها تحدّث نفسها ( لابدّ أنّها هناك .. إنّ الشّمس لم تشتد حرارتها بعد والوقت ما زال مناسباً .. ولكن كيف الوصول إليها ؟ من سيذهب ؟ إنّ وضعي لا يسمح لي بذلك والفرصة لا تفوّت ).

وأجابت ناهد :

– أنا .

– أنت ماذا ؟ ..آ..أنت تذهبين .. نعم .. هيا أسرعي في ارتداء ملابسك .

وبعد دقائق .. كانت سيارة السيد جلال تجوب الطرق .. وفي داخلها ناهد تستبين العنوان الذي كتبته أختها كي ترشد السائق وفي لحظات كانت ناهد تخترق الحديقة مسترشدة بمخطط يهدف إلى مكان معين .. وسرعان ما وصلت إليه يسبقها الترقب والقلق ، لترى الصديقة أمل جالسة على المقعد الحجري وهي تتصفح كتاباً .... بينما كانت أغصان شجرة الياسمين تتمايل فوق رأسها مراقصة النسيم العليل .

وفي السيارة .. تساءلت أمل عن معرفة ناهد لمكانها فأجابتها قائلة :

– إنّه المكان الذي كنتما .. أنت ومنى .. تقضيان فيه جلّ وقت فراغكما أليس كذلك ؟ .

– كيف عرفت ؟ من أخبرك ؟ أنت لم تأت معنا .

وآثرت ناهد أن تصمت لتقوم شقيقتها بالحديث .. وابتسمت وهي تقرب من أنفها زهرة ياسمين ورحلت مع عبقها الشذي إلى دنيا الصداقة والألفة .

في المنزل كانت منى مضطربة .. حائرة الفؤاد .. تتعثّر بالكلام وتتصنع الابتسام .. وهي تعيش في صراع من الانتظار والخوف ليس أشدّ منه ولا أصعب .. وهاهي الدقائق تمرّ عليها بطيئة بطء الشهور والسنين .

وأخيراً .. تناهى إلى سمعها الذي أرهفته صوت توقف مكابح السيارة وكان الانتظار قد نال منها .. فأسرعت بالهبوط إلى الطابق الأرضي لكنها توقفت ذاهلة عندما رأت ناهد تقف بالباب دون أن تدخل .

– ناهد ..أ أنت وحدك ؟ وأمل .. ألم .....

وبحركةٍ سريعةٍ من ناهد أدخلت أمل .. لتقابل يدين سارعتا إلى عناقها .....

– أمل ..يا صديقتي الـ .....

وانهمرت الدموع من عينيهما بغزارة بينما كانت ناهد تبتسم فَرِحة برجوع الوئام إلى صداقة الفتاتين .

# جدول المحتويات


الإهداء ..... 5

ثمن الحبِّ ..... 7

صرخة في الظلام ..... 9

في عالم الأطواق ..... 12

الوصيّة ..... 16

رحلة البحث عن العشرة الأخيرة ..... 21

قراءة في أبجدية الشتاء ..... 23

خيرٌ بين خيرين ..... 25

على طريقتي الخاصة ..... 28

حُمّى الذهب ..... 35

للموت حكاية أخرى ..... 39

الذاكرة والصابون ..... 43

أثناء زيارة عائلية ..... 45

سرّ أبي فدوى ..... 50

وما يزال البحث عن الهوية مستمراً ..... 54

استقبال خاص لرأس السنة ..... 58

في منتصف الطريق ..... 62
قصة ولادتين ..... 65
القُدوم ..... 67
الكرسي والمرآة ..... 68
أسطورة القلب المغامر ..... 75
الجزاء ..... 78
في الضمير ..... 80
نبوءة أبي عمار ..... 82
المسكن الأخير ..... 86
الليرة الأولى ..... 89
امرأة مختلفة ..... 92
الصّحن الوحيد ..... 99
موهوبون .... ولكن ..... 105
الرسالة ..... 107
العائد ..... 111
المزاد ..... 115
أقلام ..... مع وقف التنفيذ ..... 117

على أبواب الحلم ..... 120
بضع قطرات ..... 123
عقد الياسمين ..... 124

**للتعـريف**

**المؤلفة يمان عبد الحميد ياسرجي – مهندسة معمارية – صدر لها :**

**– عقد الياسمين / مجموعة قصصية /**

**– فسيفساء في خزينة الذات / وجدانيات وقصائد /**

**– لغز المحال / وجدانيات وقصائد /**

**– كن رائع الجمال / مقالات قصصية /**

**– جحا يزور التليتبيز / مسرحية للأطفال /**

**– كانوا أطفالاً مثلكم / قصص للناشئة /**

**– بصمات / مقالات قصصية /**

**– المفكرون الصغار / مسرحية للأطفال /**

**– حكايات للجيل القادم / قصص للناشئة /**

**– قلمٌ يكتب الحب / مقالات قصصية /**

**– في حضرة الوطن / وجدانيات وقصائد /**

**– كمَثَل حبة / تأملات فكرية /**

**– عندما يعصف الحب / رواية /**

**– البنكام / رواية /**

**– سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن / تأملات فكرية /**

**– أبوح ولا أبوح / وجدانيات وقصائد /**

**– إيقاعاتٌ ملوّنة /قصص ومقولات قصيرة جدًّا /**

**– سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن /تأملات فكرية/**

**– قناديل الخريف / مجموعة قصصيّة/**

**– خارطة حبّ / مجموعة قصصيّة/**

**– ثورة طائر الفينيق / وجدانيّات وقصائد/**

**كتب قيد الطباعة :**

**– أيام الفتى عربي / مسرحية للأطفال /**

**– أناشيد الفتى عربي / مجموعة أناشيد /**

**– حروبٌ على تخوم الروح / تأمّلات فكرية /**

**– نحّولة تبدأ من جديد / مسرحيّة للأطفال /**